# الندامة الكبرى

## في حال العصاة وحسرتهم من ساعة الموت إلى حين الاستقرار في النار

تأليف
أبي عبد الله محمد شومان بن أحمد الرملي

دار ابن القيم
دار ابن عفان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولي

١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣م

| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ٢٠٠٢/١٩١٦٦ |
| الترقيم الدولي | 977 - 6052 - 64 -9 |

دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤

الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥

الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر

المملكة العربية السعودية

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

القاهرة: ١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٥٠٦٦٤٢٠ - محمول ٠١٠١٥٨٣٦٢٦

الجيزة: تليفكس: ٣٢٥٥٨٢٠ ص. ب ٨ بين السرايات

جمهورية مصر العربية

E-mail:ebnaffan@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[3].

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الأحزاب: ٧٠ و٧١.

أما بعد؛ فإن الناس لم يخلقوا عبثاً، ولن يتركوا سدى، إنما خلقوا لأمر خطير ونبأ عظيم.

خُلقوا لمعرفة الله تعالى والتنبه لعظيم شأنه وكبير قدره.

خُلقوا لبذل الجهد في طاعته بالعلم بأمره، والإخلاص لوجهه، والإحسان في عبادته.

ثم إنهم لن يتركوا سدى، بل بعد موتهم سيبعثون، وإلى ربهم سيرجعون، وعلى أعمالهم سيحاسبون.

وأكثر الخلق ـ والله ـ عن هٰذا غافلون، وعما خلقوا لأجله معرضون، وبالدنيا الدنية منهمكون:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾(1).

كم قتلت الدنيا من أقرانهم فلم يتعظوا؟! وكم غدرت بأمثالهم وهم لا يشعرون؟!

﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(2).

اتبعوا الشهوات؛ فلم يحرصوا إلا عليها، واشتغلوا باللذات؛ فلم يلتفتوا إلا إليها؛ فمتى أولئك يفيقون؟!

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(3).

ألهتهم الأموال والأولاد عن ذكر الله؛ فليس فيهم خائف ولا خاشع ولا

---

(1) الروم: 7.

(2) الحشر: 19.

(3) الأعراف: 99.

أوّاه، وكأنهم لا يدرون بين يدي من سيقفون!

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

يقومون بين يدي الرب جل وعلا للحساب؛ فيقررهم بأعمالهم، ويجازيهم بأفعالهم.

ثم يصدرون من بين يديه تعالى إلى دارين: دار النعيم الأبدي، والفوز السرمدي، التي أعدها سبحانه لعباده الصالحين، وجعل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي - كما قيل - أحق ما أُنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العلماء الأكياس، وأحرى ما زاحم عليه عقلاء الناس، والحسرة كل الحسرة؛ أن تضيع لحظة من الوقت الشريف، والعمر النفيس، في غير الاشتغال بالعمل الذي يوصل إلى هذه الدار.

والدار الثانية: دار الشقاء والهموم والأحزان والغموم، وقد جعلها الله تعالى لمن خالف أمره وأوضع في معاصيه، وأعد فيها من النكال والهوان والأهوال العظام ما لا يخطر بالبال، ولا يدخل تحت الحسبان، ولا يعلم خطره إلّا هو سبحانه؛ فما أن يراها أهلها حتى يبهتوا لهولها، ويفزعوا لفظاعتها، ويندموا أعظم الندم، ويتمنوا الرجعة إلى دار العمل، ويقولوا:

﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾[2].

ويقولوا:

﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

---

(١) المطففين: ٤ - ٦.

(٢) الشورى: ٤٤.

(٣) الأنعام: ٢٧.

ويا شدة الهول إذا أُلقوا فيها وسمعوا زفيرها وشهيقها؛ فعلا صراخهم، واشتد ذعرهم، ونادوا على أنفسهم بالويل والثبور.

وقالوا:

﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾(١).

وإذا قُلِّبت وجوههم فيها، ولم يستطيعوا لها صرفاً، ولم يجدوا عنها معدِلاً، وتحيروا في ردها؛ تحسروا هنالك على ما فرطوا في جنب الرب العظيم، وقالوا:

﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾(٢).

وعندها يقال لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾(٣).

وقد كانوا ندموا من قبل؛ لما نزل بأحدهم ألمُ الموت وسكرتهُ، وباشرتْ قلبَه حسرةُ الفوتِ وشدتُهُ؛ حين فارق لذاته وشهواته، التي ألهته عن ذكر الله تعالى، وشغلته عن الدار الآخرة والعمل من أجلها؛ فقال عند ذلك:

﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾(٤).

وهكذا تلازمه الحسرات وتحيط به الهلكات، حتى يستقر في النار فيُسْلَم إلى أمه؛ أمِّ العذاب والنِّقم، ومثوى الحسرة والندم:

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾(٥).

---

(١) الأنبياء: ١٤.

(٢) الأحزاب: ٦٦.

(٣) الزمر: ٢٤.

(٤) المؤمنون: ٩٩ و١٠٠.

(٥) القارعة: ١٠ و١١.

فالأمر يا عبد الله! جِدُّ خطير؛ إنها جنة أو نار:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (١).

أمـا والـلـهِ لَوْ عَرَفَ الأنـامُ ... لِمَـا خُلِقُـوا لَمَـا غفَلُوا وَنَـامُـوا
لَقَـدْ خُلِقُـوا لِمَـا لَوْ أَبْـصَـرَتْـهُ ... عُيُونُ قُلُوبِـهِـم سَاحُـوا وهَـامُـوا
مَمَـاتٌ ثُمَّ قَبْـرٌ ثُمَّ حَشْـرٌ ... وَتَـوْبِـيـخٌ وأَهْـوَالٌ عِظَامُ
لِيَوْمِ الـحَـشْـرِ قَدْ خُلِقَتْ رِجَـالٌ ... فَصَـلُّوا مِنْ مَخَـافَتِـهِ وصَـامُـوا

فإذا طالعت يا عبدالله! ما ذكرنا، وباشر قلبك خطره؛ جادت نفسك ـ ولا بد ـ بالندم النافع، وتَحَسَّرتَ على ما فَرَّطْتَ في جنب الله تعالى، وتُبت وأنبت واسترضيت المولى بالتزام التقوى.

وذلك قبل أن لا ينفعك الندم، ولا تُقبل منك التوبة، ولا تُعطى العُتبى ولو استعتبت:

﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ (٢).

فالجِدَّ الجِدَّ عباد الله! والمسارعة المسارعة، والانتهاب الانتهاب لساعات العمر القصير، قبل حلول الأجل وانقطاع العمل.

واعلموا عباد الله! أن الآخرة قد أَزِفَت مقبلة، والدنيا قد وَلَّت مُدبرة:

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ (٣).

ولله در من قال:

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) فصلت: ٢٤.

(٣) المعارج: ٦ و٧.

يا مُعْرِضاً عَمَّا يُرادُ بِهِ وَقَدْ جَدَّ المَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِ
جَذْلانَ يَضْحَكُ آمناً مُتَبَخْتِراً فَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ
خَلَعَ السُّرُورُ عَلَيْهِ أَوْفَى حُلَّةٍ طَرَدَتْ جَمِيعَ الهَمِّ والأَحْزَانِ
يَخْتَالُ فِي حُلَلِ المَسَرَّةِ نَاسِياً مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الأَكْفَانِ
مَا سَعْيُهُ إلاَّ لِطِيبِ العَيْشِ فِي الدُّ نيا ولَوْ أَفْضَى إِلَى النِّيرانِ
قَدْ بَاعَ طِيبَ العَيْشِ فِي دَارِ النَّعِيـ ـمِ بِذَا الحُطَامِ المُضْمَحِلِّ الفَانِي

## فصل

وينبغي لك يا عبدالله! أن لا تغفل عن ذكر الموت أبداً، فإن ذكره يهزم عنك ما يشغلك عن الله تعالى من اللذات الفانية والشهوات المنغصة.

واعلم أنك بصدده في كل حين:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾(١).

فكم قد رأينا من صبيان ماتوا قبل الشباب، وشباب ماتوا قبل الشيبة؟!

وكم قد رأينا من أصحاء ماتوا من غير علة؟! وكم قد رأينا من عروس خطفه الموت ليلة زفافه؟!

تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنيا فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي إذا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الفَجْرِ
فَكَمْ مِنْ فَتَى يُمْسِي ويُصْبِحُ لَاهِياً وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لاَ يَدْرِي
وَكَمْ مِنْ عَرُوسٍ زَيَّنُوهَا لِزَوْجِهَا وَقَدْ قُبِضَتْ أَرْوَاحُهُم لَيْلَةَ القَدْرِ
وَكَمْ مِنْ صِغَارٍ يُرْتَجَى طُولُ عُمْرِهِم وَقَدْ أُدْخِلَتْ أَجْسَادُهُم ظُلْمَةَ القَبْرِ

---

(١) الأعراف: ١٨٥.

وَكَـمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ      وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ

فيا أيها الغافل! أمامك أخطار جسام وأهوال عظام، والموت ينقلك إليها ويقطع عنك النجاة منها، وقد يكون موعده غداً.

وأعجب شيء أنك في غفلة عنه:

ضَرَبْتَ عَنِ ادِّكَـارِ المَوْتِ صَفْحـا      كَأَنَّـكَ لَا تَراهُ عَلَيْكَ حَتْـمـا

***

تَنَـامُ وَلَـمْ تَنَـمْ عَنْـكَ الـمَـنَـايا      تَنَـبَّـهْ لِلْمَـنِـيَّـةِ يَا نَؤُومُ
تَمُـوتُ غداً وأَنْـتَ قَرِيرُ عَيْنٍ      مِنَ الـغَـفَـلَاتِ فِي لُجَجٍ تَعُـومُ
لَهَـوْتَ عَنِ الـفَـنَـاءِ وَأَنْتَ تَفْـنَـى      وَمَـا حَيٌّ عَلَى الـدُّنيا يَدُومُ

فتنبه يا أخي! قبل فوات الأوان، وتيقظ قبل أن يقال: مات فلان!

تَفَـكَّـرْ قَبْـلَ أَنْ تَنْـدَمْ      فَإِنَّـكَ مَـيِّـتٌ فَاعْـلَـمْ
وَلَا تَغْـتَـرَّ بِالـدُّنـيا      فَإِنَّ صَحِـيحَـهـا يَسْـقَـمْ
وإِنَّ جَدِيدَهـا يَبْـلَـى      وإِنَّ شَبَـابَـهـا يَهْـرَمْ

(فائدة): إن من رحمة الله تعالى الواسعة ورأفته البالغة، أنه تبارك اسمه ذكر لنا في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ما أعده للعصاة من العذاب الشديد، والخطر الأكيد، بل إنه سبحانه أخبرنا عن ندمهم وحسرتهم، وما يقولونه عند الموت، وفي القبر، وفي الآخرة، مما يدل على شدة ندمهم، وعظيم حسرتهم، وكبير مقتهم أنفسهم.

وكذا ذكر لنا دعاءهم على أنفسهم بالهلاك والخسران، عند معاينة أصناف العذاب، ومسّهم بنفحة منه.

وذكر لنا سبحانه تمنيهم الرجعة إلى الدنيا، ومحاولتهم الخلاص مما هم

فيه من الكرب، وأنهم لا يمكنهم ذلك.

كما قال سبحانه:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(١).

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾(٢).

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٣).

فهذا وأمثاله إنما يذكره الله سبحانه لنا لنخافه ونحذره، ونعمل على النجاة منه؛ فتحصل لنا بذلك السعادة الأبدية، فأي رحمة فوق هذا؟! وأي كرم أجل منه؟!

ومن الأمثلة الدالة على هذه الفائدة؛ قول الله تبارك اسمه:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾(٤).

فذكَرَ سبحانه جهنم وخوَّف بها، وبالطواف بينها وبين الحميم الآن، ثم

---

(١) فاطر: ٣٧.

(٢) سبأ: ٥١ ـ ٥٤.

(٣) يونس: ٥٤.

(٤) الرحمن: ٤٣ و٤٤.

قال ممتناً على عباده :

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (٢) .

وآيات أخرى كثيرة .

* * *

ومن أجل تحصيل الندم قبل الموت ، والمسارعة بالاستعداد قبل الفوت ؛ كتبت هٰذا الكتاب الذي سميته :

«الندامة الكبرى»

وذكرت فيه حال العصاة وندمهم ، وحسرتهم على التفريط في جنب الله تعالى ، من ساعة الموت إلى حين الاستقرار في النار ، حيث تعظم حسرتهم ، ويشتد ندمهم ، ويكثر بكاؤهم ، في عذاب أليم غليظ ، وشدة شديدة ، وكُرَب عظيمة ، نسأل الله تعالى النجاة من ذٰلك كله بمنِّه وكرمه .

وقد رتبته بعد هٰذه المقدمة على خمسة أبواب وخاتمة :

**الباب الأول : في فظاعة حال أهل الندامة عند الموت .**

وفيه :

* طلب العصاة عند الموت الرجعة لعمل الصالحات .

---

(١) الرحمٰن : ٤٥ .

(٢) آل عمران : ٣٠ .

* شدة نزع روح الفاجر. . .

* ضرب الملائكة وجوه الكافرين وأدبارهم. . .

* المجرمون لا بشرى لهم إلا بالنار. . .

* دعاء الفاجر على نفسه بالويل عند حمل جنازته.

**الباب الثاني: في شدة عذاب أهل الندامة في القبر.**

وفيه:

* طرح روح الفاجر من السماء، وشدة ما يلاقيه في القبر من الأهوال والفزعات.

* عذاب من لا يستبرىء من البول، وعذاب النمام وغيره.

* عذاب من ينام عن الصلاة المكتوبة، ومن يكذب الكذبة تبلغ الآفاق. . .

* عذاب الذين يفطرون قبل وقت الإفطار، وعذاب من يمنعن أولادهن ألبانهن، وبيان حال الزناة والزواني. . .

* عذاب المتبختر في مشيته.

* عذاب الخطباء القوالين.

**الباب الثالث: في حال أهل الندامة من حين النفخ في الصور إلى وقت إلقائهم في النار، وذكر الصراط وهوله، والقنطرة بين الجنة والنار.**

وفيه:

* هول الأمر إذا فزعوا وفظاعته.

* شدة كربهم وامتلاء قلوبهم بالخوف. . .

* حشر المتكبرين أذلاء حقيرين.

* تصغير المرائي وتحقيره.

* حسرة أهل الندامة على ما فرطوا في أمر الساعة.

* ذهاب الأنساب يوم القيامة، وتقطع الأسباب، وعداوة الأصحاب، وفرار المرء من أخيه وأمه وأبيه.

* عرض أهل الندامة على الرب جل وعلا، وهول موقفهم بين يديه.

* حسرتهم عند المحاسبة ونصب الموازين.

* إفلاس أهل الندامة إذا اجتمعت عليهم الخصوم.

* عجز أهل الندامة عن فداء أنفسهم من العذاب.

* إحضار المكذبين حول جهنم جثياً.

* عرض أهل الندامة على النار، واجتماع الحسرات عليهم عند معاينتها، وطلب المرد إلى الدنيا لاسترضاء الرب جل وعلا.

وفصول أخرى كثيرة.

**الباب الرابع: في حال أهل الندامة وهم في النار، وذكر أعظم عذابهم.**

وفيه فصول، منها:

* أول من تسعر بهم النار.

* طلب جهنم المزيد من أهل الندامة.

* تخاصم أهل النار.

* مقت أهل الندامة أنفسهم، وطلبهم الرجعة.

* لا تنفع الظالمين المعذرة، ولا يُعطون العتبى.

* زفيرهم في النار وشهيقهم.

* شدة بكائهم في النار.

* غلظة عذابهم فيها وكثرة أنواعه.

* فظاعة العذاب المسلط على وجوههم.

* تعذيبهم بالحميم؛ سحباً فيه، وشرباً له، وصبه من فوق رؤوسهم.

* عذاب من بخل بفضل ماله على قريبه أو مولاه.

* تمني أهل الندامة الموت، وطلبهم تخفيف العذاب عنهم...

* الظالمون لا يُسَلِّيهم اشتراكهم في العذاب.

* زيادة حسرتهم برؤية مقعدهم من الجنة لو أحسنوا.

* محاولة أهل الندامة الخروج من النار.

* ظهور الندامة الكبرى، وانكشاف الحسرة العظمى...

* حرمان أهل الندامة رؤية ربهم تبارك وتعالى.

**الباب الخامس: في بيان فظاعة النار، ورصدها أهلها، وإنذار الخلائق بها.**

وفيه فصول:

* فظاعة النار وشدة حرارتها، نعوذ بالله منها.

* ريح النار وظلّها وشرارها.

* سعة جهنم وبعد قعرها.

* شكوى النار إلى ربها؛ أن أكل بعضها بعضاً.

* الإنذار بالنار وتخويف العباد بها.

* قول الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾.

ثم الخاتمة، وفيها: حث العباد على دوام الفكر فيما أمامهم من الأهوال والأخطار؛ ليأمنوا في الآخرة مع الآمنين.

وفيها: بيان ما أعده الله تعالى للمتقين من البُشريات في الحياة الدنيا وعند الموت وفي القبر وفي الآخرة.

ثم الترغيب في تحصيلها؛ بالمبادرة بالخيرات، والاستجابة لله تعالى وللرسول ﷺ، وبالتوبة النصوح قبل فوات الأوان.

والله أسأل أن ينفعني والمسلمين بهذا الكتاب، وأن يجعلَه سبباً في توبتنا وإنابتنا، إنه هو السميع العليم، والجواد الكريم.

وكتب

أبو عبد الله

(١٤١٠هـ)

* * * * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وكتبه

[illegible]

[illegible]

* * * * *

# الباب الأول

## في فظاعة حال أهل الندامة
## عند الموت

## فصل

## في طلب العصاة عند الموت الرجعة لعمل الصالحات

قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

الصحيح أن ﴿حتى﴾ في هذه الآية هي التي يُبتدأ بعدها الكلام، ويقال لها حرف ابتداء، كما قال ابن عطية، واستظهره الشنقيطي[2].

وعليه فسؤال الرجعة في الآية ليس خاصاً بالكافر، بل يعم كل مُفرِّط، وبهذا قال القرطبي[3] وابن كثير[4] وغيرهما، وسيأتي ما يشهد له.

وقال السعدي في تفسير الآيتين[5]: «يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال إذا رأى مآله وشاهد قبح أعماله؛ فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما

---

(١) المؤمنون: ٩٩ و١٠٠.

(٢) «أضواء البيان» (٥ / ٨١٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢ / ١٤٩).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٢٥٥).

(٥) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٣ / ٣٧٤).

ذلك كما يقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله.

﴿كلا﴾؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون.

﴿إنهـا﴾؛ أي: مقالته التي تمنَّى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾؛ أي: مجرد قول اللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدَّ لعاد لما نُهِيَ.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ؛ وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من ابتداء موتهم واستقرارهم في قبورهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فَلْيُعِدُّوا له عُدَّتَهُ، ولْيأخذوا له أُهْبَتَه» اهـ.

ففكر يا عبدالله! في هذه الساعة، وقد حيل بينك وبين شهواتك ومحابك، وانقطعت عنك فرصة الأعمال الصالحة، وهجمت عليك الشدائد العظام، ووقعْت في الأخطار الجسام، فناديت عند ذلك نادماً: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾؛ فلم يُجب نداؤك، ولم تُعط ساعة واحدة تتوب فيها إلى الله تعالى وتسترضيه.

وليكن يا عبدالله! هذا النداء؛ ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ على بالك؛ لا تغفلُ عنه أبداً، فإنه إذا باشر القلب أحدث فيه خوفاً شديداً؛ فحصلت بعون الله تعالى التقوى، وانخلع العبد من المعاصي، وبادر بالصالحات ساعة الأجل.

واعلم أن الله عز وجل في كل يوم يَمُنّ عليك بالرجوع إلى الدنيا بعد موتك، وذلك إذا أرسل روحك بعد النوم؛ كما قال سبحانه:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي

﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وعن حذيفة رضي الله عنه؛ قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «باسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيا»، وإذا استيقظ من منامه قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أَحْيانا بَعْدَ ما أَماتَنا وإِلَيْهِ النُّشُورُ»[٢].

فإذا علم المتيقظ هٰذا الأمر امتلأ قلبه بالثناء على الله تعالى وشكره؛ إذ منَّ عليه بالحياة بعد الموت، وفسح له في المدة، ونسأ له في الأجل، لعله يتوب من الجنايات، ويستدرك ما فاته من الطاعات.

فما أعظمها من نعمة يتمناها أصحاب القبور، يودون لو يُطْلَقون ساعة من الزمان، يذكرون الله تعالى فيها.

فحق لمن رد الله تعالى إليه روحه أن يتنبه لهٰذه النعمة، ويغتنمها بشكر الله تعالى وذكره والثناء عليه، فما تراد الحياة إلا لذكره سبحانه؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَعَافَانِي فِي جَسَدِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»[٣].

* * * * *

---

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ١١٣ و١١٥ و١٣٠ و١٣ / ٣٧٨ - فتح) وغيره، وأخرجه البخاري أيضاً وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه، ومسلم وغيره عن البراء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٠١)، وابن السني (رقم ٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وجوَّد إسناده الألباني في «تخريج الكلم» تحت الحديث (رقم ٣٤).

# فصل

وقال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإن في ذلك الربح والفلاح والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ﴾؛ أي: يلهه ماله وولده عن ذكر الله؛ ﴿فأولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال تعالى: ﴿إنَّما أمْوالُكُم وأوْلادُكم فِتْنَةٌ واللهُ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وقوله: ﴿وأنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات، ونفقة الزوجات والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبذل المال في جميع المصالح.

* * * * *

وقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ويسره ويسر

(١) المنافقون: ٩ - ١١.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥ / ٢٤٦ - ٢٤٧).

(٣) التغابن: ١٥.

أسبابه؛ فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء لم يمكن العبدَ أن يأتي بمثقال ذرة من الخير؛ ولهٰذا قال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسراً على ما فرَّط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: لأتدارك ما فَرَّطْتُ فيه.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق جزيل الثواب، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هٰذا الحج وغيره.

وهٰذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه؛ ولهٰذا قال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها، ﴿واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر؛ فيجازيكم على ما علمه من النيات والأعمال».

وقال ابن كثير[1]: «كل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً؛ ليستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه».

وقال ابن الجوزي[2]: «من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته؛ فإنه ينتبه انتباهاً لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو تُرِك كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف.

ولو وُجِدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية؛ حصل كل مقصود من العمل بالتقوى.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٣٧٣).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٤٦).

فالعاقل من مَثَّل تلك الساعة، وعمل بمقتضى ذٰلك، فإن لم يتهيأ تصوير ذٰلك على حقيقته؛ تخايله على قدر يقظته، فإنه يَكُفّ كَفّ الهوى، ويبعث على الجد، فأما من كانت تلك الساعة نُصب عينيه؛ كان كالأسير لها».

وقال[1]: «يا غافلاً في بطالته! يا من لا يفيق من سكرته! أين ندمك على ذنوبك؟ أين حسرتك على عيوبك؟ إلى متى تؤذي بالذنب نفسك، وتضيع يومَك تضييعَك أمسَك؟ لا مع الصادقين لك قَدم، ولا مع التائبين لك ندم، هلاَّ بسطت في الدجى يداً سائلة، وأجريت في السحر دموعاً سائلة؟».

وقال[2]: «البِدارَ البدار قبل الفوات، والحِذارَ الحذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾؛ فيقال: فات».

وكان بشر الحافي إذا ذكر عنده الموت يقول: «ينبغي لمن يعلم أنه يموت، أن يكون بمنزلة من جمع زاده؛ فوضعه على رحله، لم يدع شيئاً مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه»[3].

ولأبي العتاهية[4]:

كَمْ رَأَيْنـا مِنْ عَزيزٍ    طُوِيَتْ عَنْـهُ الـكُشُوحُ
صاحَ مِنْـهُ بِرَحِيلٍ    صائِحُ الـدَّهْرِ الـصَّدُوحُ
مَوْتُ بَعْضِ الـنَّاسِ فِي الـ    أَرْضِ عَلَى الـبَعْضِ فُتُوحُ
سَيَصِيرُ الـمَرْءُ يَوْمـاً    جَسَـداً مَا فِيهِ رُوحُ
بَيْنَ عَيْنَـيْ كُلِّ حَيٍّ    عَلَمُ الـمَـوْتِ يَلُوحُ

(١) «التبصرة» (١ / ١٧٦).
(٢) «التبصرة» (١ / ١٧٧).
(٣) «التبصرة» (١ / ٢٢٦).
(٤) «ديوانه» (ص ٦٦).

كُلُّنا في غَفْلَةٍ والمَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ

لِبَنِي الدُّنيا مِنَ الدُّنيا غَبُوقٌ وصَبُوحُ

رُحْنَ في الوَشْيِ وأَصْبَحْـنَ عَلَيْهِنَّ المُسُوحُ

كُلُّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهْرِ لَهُ يَوْمٌ نَطُوحُ

نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْكِينُ إنْ كُنْتَ تَنُوحُ

لَسْتَ بِالبَاقِي وَلَوْ عُمِّرْتَ مَا عُمِّرَ نُوحُ

*****

# فصل

## في شدة نزع روح الفاجر وتوبيخ الملائكة إياه ولعنه، وتبشيره بسخط الله تعالى وغضبه وعذابه، من حميم وغساق وغير ذلك

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار؛ فانتهينا إلى القبر ولما يلحد بَعْدُ...» الحديث، وفيه:

«وأمَّا الفاجرُ، فإذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ وانْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا؛ أتاهُ مَلَكُ المَوْتِ فيَقْعُدُ عِنْدَ رأسِهِ، ويَنْزِلُ المَلائكةُ سُودُ الوُجُوه[1] مَعَهُمُ المُسُوحُ[2]، فيَقعُدُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ؛ فيَقولُ مَلَكُ المَوْتِ: اخْرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثَةُ إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، قال: فتَفَرَّقُ في جَسَدِهِ، فيَنْقَطِعُ مَعَها العُرُوقُ والعَصَبُ كما يُسْتَخْرَجُ الصُّوفُ المَبْلُولُ بالسُّفُّود[3] ذي الشُّعَبِ، قال: فيَقُومُونَ إليْهِ؛ فلا يَدَعُونَها في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فيَصْعَدُونَ بها إلى السَّماءِ؛ فلا يَمُرُّونَ على جُنْدٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلَّا قَالُوا: ما هٰذهِ الرُّوحُ الخَبيثَةُ؟ قال: فيَقولُونَ: فُلانٌ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ، قال: فإذا انْتُهِيَ بِهِ إلى السَّماءِ؛ غُلِّقَتْ دُونَهُ أبْوابُ السَّماواتِ، قال: ويُقالُ: اكْتُبُوا كِتابَهُ في سِجِّينٍ، قال: ثُمَّ يُقالُ: أعِيدُوا عَبْدي إلى الأرْضِ، فإنِّي وَعَدْتُهُم أنِّي مِنْها خَلَقْتُهُم وفيها أُعيدُهُم ومِنْها أُخْرِجُهُم تارةً أُخرى، قال: فيُرْمَى برُوحِهِ حتَّى تَقَعَ في جَسَدِهِ. قال: ثُمَّ قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]»[4].

---

(١) وفي رواية لأحمد: «نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ».

(٢) واحدها مِسْح، وهو كِساء من الشَّعر.

(٣) (السَّفُّود والسُّفُّود): حديدة ذات شُعب مُعقَّفة، وجمعه سفافيد. «لسان».

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢١٢ و٤٧٥٣ و٤٧٥٤)، والحاكم (١ / ٣٧ - ٣٨) بلفظه، وأحمد =

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

«وإذا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وغَسَّاقٍ، وآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ[1]؛ فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذٰلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ؛ فَلاَ يُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هٰذا؟ فَيُقَالُ: فُلاَنٌ، فَيُقَالُ: لاَ مَرْحَباً بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً؛ فَإِنَّهَا لاَ تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى القَبْرِ»[2].

ومن حديث أبي هريرة أيضاً:

«وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ؛ أَتَتْهُ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ بِمِسْحٍ[3]، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطاً عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الأَرْضِ فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هٰذِهِ الرِّيحَ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ»[4].

---

= (٤ / ٢٨٨ و٢٩٥) وغيرهم، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٥٩).

(١) في سورة ص، الآية: ٥٧ و٥٨: ﴿هٰذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾، قال ابن كثير في «تفسيره» (٤ / ٤١): «أما الحميم؛ فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق؛ فهو ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهٰذا قال عز وجل: ﴿وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾؛ أي: وأشياء من هٰذا القبيل؛ الشيء وضده يعاقبون بها.

وقال في تفسير «سورة النبأ» (٤/٤٦٤): «(الغساق): هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم؛ فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢)، وأحمد (٢ / ٣٦٤ - ٣٦٥ و٦ / ١٤٠)، وحسن سنده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ١٦٢٨).

(٣) كساء من شعر.

(٤) أخرجه النسائي (٤ / ٨ - ٩) وهٰذا لفظه، وابن حبان (٧٣٣ - موارد)، والحاكم (١ / =

ومن حديثه أيضاً:

«وإنَّ الكافرَ إذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ ـ قال حماد[1]: وذكر من نتنها، وذكر لعناً ـ وَيَقُولُ أَهْلُ السَّماءِ: رُوحٌ خَبيثةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ؛ قال: فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ»[2].

قال أبو هريرة: فَرَدَّ رسولُ الله ﷺ رَيْطَةً[3] كانت عليه على أنفه، هكذا»[4].

*****

= ٣٥٢ ـ ٣٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٢٩٤).

(١) هو حماد بن زيد راوي الحديث.

(٣) (إلى آخر الأجل)؛ أي: إلى سجين؛ فهي منتهى الأجل، ويحتمل أن المراد إلى انقضاء أجل الدنيا. قاله القاضي؛ كما في «شرح مسلم» (١٧ / ٢٠٥).

(٣) قال النووي: «(الرَّيطة): هي ثوب رقيق، وقيل: هي الملاءة، وكان سبب ردها على الأنف بسبب ما ذكر من نتن ريح روح الكافر».

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٢).

# فصل

## في ضرب الملائكة وجوه الكافرين وأدبارهم وتبشيرهم بعذاب الحريق

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار؛ لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أستاههم».

وقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[3].

قال السعدي[4]: «﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة، ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة؟!

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه، ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُم اتَّبَعُوا مَا

---

(١) الأنفال: ٥٠ و٥١.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٣١٩).

(٣) محمد: ٢٧ و٢٨.

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥ / ٣٥).

أَسْخَطَ اللهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وكَرِهُوا رضوانَهُ﴾؛ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ولا يدنيهم منه.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، وهٰذا بخلاف من اتبع ما يُرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيُكَفِّر عنه سيئاته، ويضاعف له أجره وثوابه».

وقال الطبري[1]: «حدثنا ابن وكيع؛ قال: ثنا يحيى بن أسلم عن إسماعيل بن كثير عن مجاهد ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وأَدْبَارَهُم﴾؛ قال: وأستاههم، ولٰكن الله كريم يُكَنِّي».

وقال الله جل ثناؤه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

قال السعدي[3]: «﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمراتِ المَوْتِ﴾[4]؛ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكربه الشنيعة، لرأيت[5] أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها».

---

(١) «جامع البيان» (١٦ / ١٠).

(٢) الأنعام: ٩٣.

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٢ / ٤٥).

(٤) (الغمرات): مفردها غَمْرَة، وغَمْرَة الشيء ـ كما في «القاموس» ـ شِدَّتُهُ ومُزْدَحَمُهُ.

وقال الطبري في «تفسيره» (٧ / ١٨٢): «(الغَمَرات): جمع غَمْرَة، وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه، وأصله الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها».

(٥) لرأيت... إلخ، هٰذا جواب: ﴿وَلَوْ تَرَى...﴾ المحذوف.

وقوله تعالى: ﴿والمَلاَئِكَةُ باسِطُوا أيْدِيهِمْ﴾، قال ابن كثير[1]: «أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهٰذا يقولون لهم: ﴿أخْرِجُوا أنْفُسَكُم﴾، وذلك أن الكافر إذا احْتُضِر؛ بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم، وغضب الرحمٰن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أخْرِجُوا أنْفُسَكُم اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ[2] بِمَا كُنْتُم تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحَقِّ﴾ الآية؛ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة؛ كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون على اتباع آياته والانقياد لرسله».

* * * * *

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ١٥٧).

(٢) قال الطبري (٧ / ١٨٣): «العرب إذا أرادت بالهون معنى الهوان؛ ضمت الهاء، وإذا أرادت به الرفق والدّعة وخفة المؤنة؛ فتحت الهاء».

# فصل

## في أن المجرمين لا بشرى لهم إلا بالنار وغضب الجبار

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يَصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار، وهٰذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات[3].

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى﴾؛ يعني: يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما، ولا منافاة بين هٰذا وما تقدم؛ فإن الملائكة في هٰذين اليومين (يوم الممات، ويوم المعاد) تتجلى للمؤمنين وللكافرين؛ فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين، ﴿وَيَقُولُونَ حِجراً مَحْجُوراً﴾؛ أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر المنع، ومنه يقال: حَجَر القاضي على فلان إذا منعه التصرف؛ إما لفلس، أو سفه، أو صغر، أو نحو ذٰلك، ومنه سُمِّي الحِجْر عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطُّوَّاف أن يطوفوا فيه، وإنما يُطاف من ورائه، ومنه يقال للعقل: حِجر لأنه يمنع

---

(١) الفرقان: ٢٢.

(٢) انظر: «تفسيره» (٣ / ٣١٤ و٣١٥).

(٣) اغتنم معرفة ذٰلك في كتابي «بشرى المتقين في الحياة الدنيا وفي الآخرة».

صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة. هٰذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد، واختاره ابن جرير».

*****

# فصل

## في دعاء الفاجر على نفسه بالويل عند حمل جنازته

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا وُضِعَتِ الجَنَازَةُ واحْتَمَلَها الرِّجالُ عَلى أَعْناقِهِم، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً؛ قَالَتْ: قَدِّمُوني، وإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ؛ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ، ولَوْ سَمِعَهُ؛ لَصُعِقَ»[1].

قال ابن الأثير في «النهاية»: «(الويل): الحُزْنُ والهلاك والمشقَّة من العذاب، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه: يا حزني، ويا هلاكي، ويا عذابي! احْضُرْ؛ فهذا وَقْتُك وأوانُك».

وقال الحافظ في «الفتح»[2]: «وأضاف الويل إلى ضمير الغائب حملاً على المعنى، كراهية أن يضيف الويل إلى نفسه».

ويؤيد قول الحافظ رواية النسائي[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ عَلَى سَرِيرِهِ؛ قَالَ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وإِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ (يعني: السوء) عَلَى سَرِيرِهِ؛ قَالَ: يَا وَيْلِي؛ أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِي؟».

فتخيل نفسك يا عبدالله! وأنت تجود بروحك الغالية، في ساعة يعرق لهولها الجبين، ويشتد فيها الكرب ويكثر الأنين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١٨٢ و١٨٤ و٢٤٤ - فتح) وغيره.

(٢) (٣ / ١٨٥).

(٣) (٤ / ٤١)، وهي صحيحة وعلى شرط مسلم؛ كما في «أحكام الجنائز» (ص ٧٢).

تخيل نفسك وقد اجتمعت عليك الشدائد؛ شدة الموت وألمه وسكرته، وهول معاينة ملائكة العذاب، وضربهم لك وتوبيخهم إياك؛ كما ذُكر آنفاً.

وتخيل فظاعة ما أنت قادم عليه؛ من ظلمة القبر وعذابه ـ إن لم يسلم الله تعالى ـ، ثم خطر ما بعده من حين النفخ في الصور إلى حين الاستقرار في النار، والعياذ بالله تعالى.

وأيضاً شدة مفارقة محابك من الدنيا؛ من الأطعمة الفاخرة، والفواكه اللذيذة، والألبسة المُزيَّنة، والنساء الجميلات، أضف إلى ذلك مفارقة الزوجة والأولاد والأهل والأصحاب، ومفارقة الجاه والرياسة والأتباع والأنصار، وكل ما كنت مشغولاً به عن الله تعالى والدار الآخرة؛ كما قال تعالى:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (1).

فيا الله ما أعظمها من شدائد! لو قدم العبد للخلاص منها مجموع ندم النادمين؛ لما تُقُبِّل منه، ولو تفكر فيها قبل ساعة الاحتضار؛ لسخت نفسه بالندم النافع، ولأوجب له ذلك التوبة والاستغفار، وتحسين ما اغتر به من العبادات التي لم يوقعها على وجه الإخلاص وطريق الاتباع، فضلاً عن ترك المحرمات المعلومات.

وقد ذكر الله تعالى اجتماع الشدائد على المحتضر؛ فقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ (2).

---

(1) سبأ: ٥٤.

(2) القيامة: ٢٦ ـ ٣٠.

قال السعدي[1]: «﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأُريد أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته، ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى؛ ليجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها؛ فهٰذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها».

ولأبي العتاهية[2]:

تَعَالَى اللهُ ماذا تَصْـ ... ـنَعُ الأَيَّامُ والغِيَرُ
وَمَا يَبْقَى عَلَى الحِدْثَا ... نِ لا صِغَرٌ ولاَ كِبَرُ
وَمَا يَنْفَكُّ نَعْشٌ جَنَا ... زَةٍ يَمْشِي بِهِ نَفَرُ
رَأَيْتُ عَسَاكِرَ المَوْتَى ... فَهَاجَ لِعَيْنِيَ العِبَرُ
مَحَلٌّ مَا عَلَيْهِم فِيـ ... ـهِ أَرْدِيَةٌ وَلاَ حُجَرُ
سُقُوفُ بُيُوتِهِم فِيهَا ... هُنَاكَ اللِّبْنُ والمَدَرُ
عُرَاةٌ رُبَّمَا غَابُوا ... وكَانُوا طَالَمَا حَضَرُوا
وكَانُوا طَالَمَا رَاحُوا ... إِلَى اللَّذَّاتِ وابْتَكَرُوا
فَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ بِهِم ... إِلَى سَفَرٍ هُوَ السَّفَرُ
وَقَدْ أَضْحَوْا بِمَنْزِلَةٍ ... يُتَرْجِمُ دُونَهَا الخَبَرُ
تَفَكَّرْ أَيُّهَا المَغْرُو ... رُ قَبْلَ تَفُوتُكَ الفِكَرُ
فَإِنَّ جَمِيعَ مَا عَظَّمْـ ... ـتَ عِندَ المَوْتِ مُحْتَقَرُ
فَلاَ تَغْتَرَّ بالدُّنيا ... فَإِنَّ جَمِيعَهَا غَرَرُ
وَقُلْ لِذَوِي الغُرُورِ بِهَا ... رُوَيْدَكُمُ ألاَ انْتَظِرُوا
فَأَقْصَى غَايَةِ المِيعَا ... دِ فِيمَا بَيْنَنَا الحُفَرُ
كَذَاكَ تَصَرُّفُ الأَيَّا ... مِ فِيهَا الصَّفْوُ والكَدَرُ

---
(1) «تيسير الكريم الرحمٰن» (5 / 343).
(2) «ديوانه» (ص 112 - 113).

# الباب الثاني

## في شدة عذاب أهل الندامة
## في القبر

# فصل

## في طرح روح الفاجر من السماء
## وشدة ما يلاقيه في القبر من الأهوال والفزعات

جاء في حديث البراء رضي الله عنه في شأن الكافر أو الفاجر:

«فَتُطْرَحُ رُوحُهُ [مِنَ السَّماءِ] طَرْحاً [حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ]، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾(١)، فَتُعادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، [قال: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِ أَصْحابِهِ إِذا وَلَّوْا عَنْهُ]، ويأتيه مَلَكانِ [شديدا الانتهار، فَيَنْتَهِرانِهِ وَ] يُجْلِسانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هاهْ هاهْ، لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: ما دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هاهْ هاهْ، لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: ما هٰذا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُم؟ [فَلا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ]؛ فَيَقُولُ: هاهْ هاهْ، لا أَدْرِي، [سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذاكَ، قالَ: فَيُقالُ: لا دَرَيْتَ]، [وَلا تَلَوْتَ]؛ فَيُنادِي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرُشُوا لَهُ مِنَ النّارِ، وافْتَحُوا لَهُ باباً إِلى النّارِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّها وَسَمُومِها، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، ويأتيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ؛ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هٰذا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: [وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ] مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؛ فَيَقُولُ: أَنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، [واللهِ ما عَلِمْتُكَ إِلَّا] [كُنْتَ بَطِيئاً عَنْ طاعَةِ اللهِ، سَرِيعاً فِي مَعْصِيَةِ اللهِ؛ فَجَزاكَ

(١) الحج: ٣١.

اللهُ شرّاً، ثُمّ يُقَيِّض لَهُ أعْمَى أصَمَّ أبْكَم، في يَدِهِ مِرْزَبَةٌ(١)، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُراباً؛ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُراباً، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَما كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إلاّ الثَّقَلَيْن، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، وَيُمْهَدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ]؛ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا قُبِرَ المَيِّتُ (أو قَالَ: أَحَدُكُم)؛ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأحَدِهِمَا المُنْكَرُ والآخَرُ النَّكِيرُ؛ فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلاّ اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هٰذا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ؛ فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرَهُم؛ فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لا يُوقِظُهُ إلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذٰلِكَ.

وإِنْ كَانَ مُنَافِقاً؛ قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لا أَدْرِي؛ فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذٰلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ؛ فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذٰلِكَ»(٣).

---

(١) (المِرْزَبَة) بالتخفيف: المِطرقة الكبيرة التي تكون للحداد، ويقال لها: (الإرْزَبَّة) بالهمز والتشديد؛ كذا في «النهاية» و«اللسان».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١ / ٣٧ ـ ٤٠) كما تقدم، والطيالسي (رقم ٧٥٣)، وأحمد (٤ / ٢٨٧ و٢٨٨ و٢٩٥ و٢٩٦) والسياق له، وغيرهم.

والزيادة الأولى والرابعة والخامسة والسادسة والتاسعة للطيالسي، والثانية للحاكم، والثالثة والسابعة والثامنة والعاشرة لأحمد.

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وجوَّد إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٣٨٠).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: جاءت يهودية فاستطعمت على بابي؛ فقالت: أطعموني أعاذكم الله من فتنة الدجال، ومن فتنة عذاب القبر. قالت: فلم أزل أحبسها حتى جاء رسول الله ﷺ؛ فقلت: يا رسول الله! ما تقول هذه اليهودية؟ قال: «وما تقولُ؟»، قلت: تقول: أعاذكم الله من فتنة الدجال، ومن فتنة عذاب القبر. قالت عائشة: فقام رسول الله ﷺ؛ فرفع يديه مدّاً يستعيذ بالله من فتنة الدجال، ومن فتنة عذاب القبر، ثم قال: «أمَّا فِتْنَةُ الدَّجَّالِ؛ فإنَّهُ لَمْ يَكُنْ نبيٌّ إلاَّ قدْ حذَّرَ أُمَّتَهُ، وسأُحَذِّرُكُمُوهُ تحْذيراً لَمْ يُحذِّرْهُ نبيٌّ أُمَّتَهُ، إنَّهُ أعْوَرُ واللهُ عزَّ وجلَّ ليْسَ بأعْوَرَ، مكْتُوبٌ بيْنَ عيْنَيْهِ كافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤمِنٍ، فأمَّا فِتْنَةُ القَبْرِ؛ فبي تُفْتَنُونَ، وعَنِّي تُسْألُونَ، فإذا كانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ؛ أُجْلِسَ في قَبْرِهِ غيْرَ فَزِعٍ ولاَ مَشْعُوفٍ[1]، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فيَقُولُ: في الإسْلامِ، فيُقالُ: ما هٰذا الرَّجُلُ الَّذي كانَ فِيكُمْ؟ فيَقُولُ: مُحمَّدٌ رسُولُ اللهِ ﷺ، جاءَنا بِالبَيِّناتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فصدَّقْناهُ، فيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فيَنْظُرُ إلَيْها يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً، فيُقالُ لَهُ: انْظُرْ إلى ما وَقاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ إلى الجَنَّةِ، فيَنْظُرُ إلى زَهْرَتِها وما فِيها، فيُقالُ لَهُ: هٰذا مَقْعَدُكَ مِنْها، ويُقالُ: على اليَقِينِ كُنْتَ، وعَلَيْهِ مِتَّ، وعَلَيْهِ تُبْعَثُ إنْ شاءَ اللهُ.

وإذا كانَ الرَّجُلُ السُّوءُ؛ أُجْلِسَ في قَبْرِهِ فَزِعاً مَشْعوفاً، فيُقالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فيَقُولُ: لا أدْري. فيُقالُ: ما هٰذا الرَّجُلُ الَّذي كانَ فِيكُمْ؟ فيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلاً، فقُلْتُ كَما قالُوا، فتُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ الجَنَّةِ، فيَنْظُرُ إلى زَهْرَتِها وما فِيها، فيُقالُ لَهُ: انْظُرْ إلى ما صَرَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فيَنْظُرُ إلَيْها يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً، ويُقالُ لَهُ: هٰذا مَقْعَدُكَ مِنْها، كُنْتَ على الشَّكِّ، وعَلَيْهِ مِتَّ، وعَلَيْهِ تُبْعَثُ إنْ شاءَ اللهُ، ثُمَّ يُعَذَّبُ»[2].

---

(١) (الشَّعْف): شدة الفزع حتى يذهب بالقلب. «نهاية».

(٢) أخرجه أحمد (٦ / ١٤٠) بإسناد صححه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / =

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ - وإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم -؛ أتاهُ مَلَكانِ فيُقعِدانِه فيَقولانِ: مَا كُنْتَ تَقولُ فِي هٰذا الرَّجُلِ (لِمُحَمَّدٍ ﷺ)؟ فأَمَّا المُؤمِنُ فيَقولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ الله ورَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الجَنَّةِ؛ فيَراهُما جَمِيعاً.

وأَمَّا المُنافِقُ والكافِرُ؛ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقولُ فِي هٰذا الرَّجُلِ؟ فَيَقولُ: لَا أَدْري، كُنْتُ أَقولُ مَا يَقولُ النَّاسُ؛ فيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بِمَطارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصيحُ صَيحةً يَسْمَعُها مَنْ يَليه غَيْرَ الثَّقَلَيْن»[1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ؛ إذ بصر بجماعة، فقال:

«علامَ اجْتَمَعَ هٰؤلاءِ؟»، قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثَّرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال:

«أيْ إخْوَانِي! لِمِثْلِ اليَوْمِ فَأَعِدُّوا»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: مرّ النبي ﷺ على قبر دُفن حديثاً،

---

= ٣٦٥).

وأخرجه بسياق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه (٢ / ٣٦٤و٦ / ١٤٠)، وابن ماجه بنحوه (٤٢٦٢)، وأتمه في (٤٢٦٨) وقد تقدم.

(١) أخرجه البخاري (٣ / ٢٣٢ - ٢٣٣ - فتح)، ومسلم (٢٨٧٠) وغيرهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد (٤ / ٢٩٤) واللفظ له، وغيرهما، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٤ / ٣٤٥).

فقال :

«رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنَفَّلُونَ يَزِيدُهُمَا هٰذا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُم»(١).

ويروى أن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة؛ فنزل وصلّى ركعتين، فقيل له: هٰذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: «ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه، فأحببت أن أتقرَّب إلى الله بهما».

وقيل: «البصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره؛ فيرى مكانه بين أظهرهم، فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، ويتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيِّعٌ له؛ لكان أحبَّ إليهم من الدنيا بحذافيرها؛ لأنهم عرفوا قدر الأعمار، وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يومٍ من العمر؛ ليتدارك المقصر به تقصيره؛ فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته؛ فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على تلك الساعة».

وفي «لطائف المعارف»(٢): «غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يُفَرِّطون في حياتهم؛ فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعاً، ومنهم من يقطعها بالمعاصي.

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير، يعني: أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة؛ ليتوبوا فيها ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذٰلك.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (رقم ٩٢٤) وغيره، وصحح إسناده وعلى شرط مسلم الألباني في «الصحيحة» (رقم ١٣٨٨).

(٢) (ص ٣٥٥).

لَوْ قِيلَ لِقَـوْمٍ مَا مُنَـاكُـمُ طَلَبُـوا حَيَاةَ يَوْمٍ لِيَتُـوبُـوا فَاعْـلَـمِ
وَيْحَكِ يَا نَفْسُ أَلا تَيَقُّظُ يَنْـفَـعُ قَبْـلَ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِـي
مَضَـى الـزَّمَـانُ فِي تَوَانٍ وَهَـوَى فَاسْتَـدْرِكِي مَا قَدْ بَقِي واغْتَنِمِي»

وفي «التبصرة»(١): «كم من ظالم تعدَّى وجار؛ فما راعى الأهل ولا الجار، بيْنَا هو عقد الإصرار، حل به الموت؛ فحل من حلته الأزرار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أولِي الأَبْصَارِ﴾.

ما صحبه سوى الكفن، إلى بيت البِلى والعفن، لو رأيته وقد حلت به المِحَن، وشِين ذلك الوجه الحسن؛ فلا تسأل كيف صار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أولِي الأَبْصَارِ﴾.

سال في اللحد صديده، وبَلِي في القبر جديده، وهجره نسيبه ووديده، وتفرق حشمه وعبيده والأنصار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

أين مجالسه العالية، أين عيشته الصافية، أين لذاته الخالية، كم كم تَسفى على قبره سافية، ذهبت العين وأخفيت الآثار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

تقطعت به جميع الأسباب، وهجره القرناء والأتراب، وصار فراشه الجندل والتراب، وربما فُتح له في اللحد باب النار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

خلا والله بمـا كان صنـع، واحتوشـه الندم وما نفع، وتمنى الخلاص وهيهـات قد وقـع، وخلاه الخليل المصافي وانقطع، واشتغل الأهل بما كان جمع، وتملك الضدُّ المال والدار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

نادم بلا شك ولا خفا، باكٍ على ما زلّ وهفا، يود أن صافي اللذات ما

---

(١) (١ / ٢٧٢).

صفا، وعلم أنه كان يبني على شفا جرف هار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

قارنه عمله من ساعة الحَيْن؛ فهو يتمنى الفرار وهيهات أين؟ ويقول يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين؛ فهو على فراش الوحدة وحده، والعمل ثاني اثنين، ولكن لافي الغار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وهٰذه وإن كانت حالة من غدا؛ فلكلٍ منكم مثلها غداً، فانتبهوا من رقادكم قبل الردى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، إنما هي جنة أو نار؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾».

وفيها[1]: «يا غافلاً عن نفسه! أمرك عجيب، يا قتيل الهوى! داؤك غريب، يا طويل الأمل! ستدعى فتجيب، وهٰذا عن قليل، وكل آت قريب، هلا تذكرت لحدك، كيف تبيت وحدك، ويباشر الثرى خدك، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك المحب بعدك، ناسياً عنه بعدك؟! والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك، إلى متى وحتى متى تترك رشدك؟! أما تحسن أن تحسن قصدك؟! الأمر جد مجد؛ فلازم جدك.

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بَعْدَ طُولِ تَوَدُّدٍ ... وَنَأَى الْمَزَارُ فَأَسْلَمُوكَ وَأَقْشَعُوا
خَذَلُوكَ أَفْقَرَ مَا تَكُونُ لِغُرْبَةٍ ... لَمْ يُؤْنِسُوكَ وَكُرْبَةً لَمْ يَدْفَعُوا
قُضِيَ الْقَضَاءُ وَصِرْتَ صَاحِبَ حُفْرَةٍ ... عَنْكَ الأَحِبَّةُ أَعْرَضُوا وَتَصَدَّعُوا»

ولأبي العتاهية[2]:

يَا أَيُّهَا الْمُتَسَمِّنُ ... قُلْ لِي لِمَنْ تَتَسَمَّنُ
سَمَّنْتَ نَفْسَكَ لِلْبِلَى ... وَبَطِنْتَ يَا مُسْتَبْطِنُ

---

(1) (٢ / ٢٠٦).

(2) «ديوانه» (ص ٢٦٦).

وأسَـأْتَ كُلَّ إسـاءَةٍ وَظَـنَـنْـتَ أنَّـكَ تُحْـسِـنُ
مالِـي رَأيْتُـكَ تَطْمَئِـنُّـ م إلَـى الـحَـيَاةِ وَتَـرْكُـنُ
يَا سَاكِـنَ الـحُـجُـرَاتِ مَا لَكَ غَيْرَ قَبْـرِكَ مَسْكَـنُ
الـيومَ أنْـتَ مُكَـاثِـرٌ ومُـفَـاخِـرٌ تَـتَـزَيَّـنُ
وَغـداً تَصِـيرُ إلَـى الـقُبُـو ر مُحَـنَّـطٌ وَمُـكَـفَّـنُ
أحْـدِثْ لِرَبِّـكَ تَوْبَـةً فَسَـبِـيلُـهَـا لَكَ مُمْـكِـنُ
واصْـرِفْ هَواكَ لِخَـوْفِـهِ مِمَّـا تُسِـرُّ وَتُـعْـلِـنُ
فَكَـأنَّ شَخْـصَـكَ لَمْ يَكُـن فِي الـنَّـاسِ سَاعَـةَ تُدْفَـنُ
وَكَـأنَّ أهْـلَكَ قَدْ بَكَـوْا جَزَعـاً عَلَيْكَ وَرَنَّـنُـوا
فَإذا مَضَـتْ لَكَ جُمْـعَـةٌ فَكَـأنَّـهُـمْ لَمْ يَحْـزَنُـوا
والـنَّـاسُ فِي غَفَـلاتِـهِـم وَرَحَـى الـمَـنِـيَّةِ تَطْحَـنُ
مَا دُونَ دائِـرَةِ الـرَّدَى حِصْـنٌ لِمَـنْ يَتَـحَـصَّـنُ

*****

# فصل

## في عذاب من لا يستبرىء من البول
## وعذاب النمام والمغتاب

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَكْثَرُ عَذَابِ القَبْرِ مِنَ البَوْلِ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قبرين؛ فقال:

«إِنَّهُما لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هٰذا؛ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وأمَّا هذا؛ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثم دعا بعَسِيبٍ(٢) رطب؛ فشقه باثنين، فغرس على هٰذا واحداً، وعلى هٰذا واحداً، ثم قال:

«لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُما ما لَمْ يَيْبَسا»(٣).

قال النووي(٤): «(لا يستتر من بوله)؛ روي ثلاث روايات: يستتر، ويستنزه، ويستبرىء، وكلها صحيحة، ومعناها: لا يتجنبه ويتحرز منه، والله أعلم» اهـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٨)، والحاكم (١ / ١٨٣)، وأحمد (٢ / ٣٢٠ و٣٨٨ و٣٨٩) وغيرهم، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «إرواء الغليل» (١ / ٣١١)، وفي الباب عن أنس وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما.

(٢) هو الجريد والغصن من النخل «نووي»، وفي «النهاية»: جريدة من النخل، وهي السَّعفة مما لا ينبت عليه الخُوص.

(٣) أخرجه البخاري (١ / ٣١٧ و٣٢٢ و٣ / ٢٢٢ و٢٤٢ و١٠ / ٤٦٩ و٤٧٢ - فتح)، ومسلم (٢٩٢) وغيرهما.

(٤) انظر: «شرح مسلم» (٣ / ٢٠١).

و (النميمـة): «نَقْـلُ الحَدِيثِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضٍ؛ لِيُفْسِدُوا بَيْنَهُم»، كذا فسرها رسول الله ﷺ، فيما رواه أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَتَدْرُونَ مَا الْعَضْهُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «نَقْلُ الحَدِيثِ...» فذكره[1].

و (العَضْهُ): النميمة، روى مسلم[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: إن محمداً ﷺ قال:

«أَلاَ أُنَبِّئُكُم مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ».

وروى حديث القبرين أبو بكرة رضي الله عنه من وجه آخر، وفيه:

«أَمَّا أَحَدُهُما؛ فَيُعَذَّبُ فِي البَوْلِ، وأَمَّا الآخَرُ؛ فَيُعَذَّبُ فِي الغِيبَةِ»[3].

ولعل الجمع بينهما أن الآخر يعذب في الغيبة والنميمة.

ثم وجدت ما يؤيد ذلك، وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: كنا نمشي مع رسول الله ﷺ؛ فمررنا على قبرين، فقام؛ فقمنا معه، فجعل لونه يتغير حتى رُعِدَ كُمُّ قميصه؛ فقلنا: ما لك يا رسول الله؟ فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٤٢٦) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٨٤٥).

(٢) (رقم ٢٦٠٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٩)، وأحمد (٥ / ٣٥ - ٣٦) وغيرهما، من رواية ابن مرّار عن جده أبي بكرة ولم يدركه؛ كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ١٣٩)، لكن؛ وصله الطيالسي في «مسنده» (٨٦٧)، وابن عدي في «الكامل» (ق ٤٠ / ١)؛ كما قال الألباني في «صحيح الترغيب» (١ / ٦٦)، والحديث جوَّد إسناده الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣ / ١٤٢)، والحافظ في «الفتح» (١ / ٣٢١ و١٠ / ٤٧٠).

«أَمَا تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟»، فقلنا: وما ذاك يا نبي الله؟ قال:

«هٰذانِ رَجُلانِ يُعَذَّبانِ فِي قُبُورِهما عَذاباً شديداً فِي ذَنْبٍ هَيِّنٍ[1]!» قلنا: فيم ذٰلك؟ قال:

«كَانَ أَحَدُهُما لا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ، وَكَانَ الآخرُ يُؤْذِي النَّاسَ بِلِسَانِهِ، ويَمْشِي بَيْنَهُم بِالنَّمِيمَةِ»، فدعا بجريدتين من جرائد النخل، فجعل في كل قبر واحدة، قلنا: وهل ينفعهم ذٰلك؟ قال:

«نَعَمْ، يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا دَامَتَا رَطْبَتَيْنِ»[2].

ويحتمل أن يكون هٰذا في قصتين مختلفتين[3]؛ فالله أعلم.

(تنبيه): إن كان من لا يستبرىء من بوله؛ فيفسد صلاته أو ينقصها (على قولين)، يُعذب عذاباً شديداً؛ فكيف بمن لا يصلي؟!

وإن كان من يؤذي الناس بلسانه، ويسعى بينهم بالنميمة؛ يعذب كذٰلك؛ فكيف بمن يضربهم بيده، أو يسجنهم ظلماً، أو يقتل منهم نفساً بغير نفس؟!!

(فائدة): قال الألباني في «الإرواء»[4]: «قد جاء في حديث جابر الطويل في «صحيح مسلم» (٨ / ٢٣٥) بيان التخيف المذكور في الحديث، وهو قوله ﷺ: «**إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، فَأَحْبَبْتُ بِشَفَاعَتِي أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا مَا دَامَ الغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**». فهٰذا نص على أن التخفيف سببه شفاعته ﷺ ودعاؤه لهما،

(١) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ١٤١): «قوله: (فِي ذَنْبٍ هَيِّنٍ)؛ يعني: هين عندهما وفي ظنهما، أو هين عليهما اجتنابه، لا أنه هين في نفس الأمر».

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٤٠ ـ موارد)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (رقم ١٥٥ ـ ط ٣).

(٣) انظر: «الفتح» (١ / ٣١٩).

(٤) (١ / ٣١٣).

وأن رطابة الغصنين إنما هي علامة لمدة الترفيه عنهما، وليست سبباً، وبذلك يظهر بدعية ما يصنعه كثير من الناس في بلادنا الشامية وغيرها؛ من وضع الآس والزهور على القبور عند زيارتها، الأمر الذي لم يكن عليه رسول الله ولا أصحابه من بعده، على ما في ذلك من الإسراف وإضاعة المال، والله المستعان» اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَمَّا عُرِجَ بِي؛ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُم أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُم وَصُدُورَهُم؛ فَقُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِم»[1].

* * * * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٧٨) وغيره، وهو في «الصحيحة» (رقم ٥٣٣).

# فصل

## في عذاب من ينام عن الصلاة المكتوبة
## ومن يكذب الكذبة؛ فتبلغ الآفاق، وعذاب الزناة والزواني
## وعذاب أكلة الربا

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يعنى مما يكثر أن يقول لأصحابه:

«هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُم مِنْ رُؤْيَا؟»، قال: فيقصُّ عليه ما شاء الله أن يقصَّ، وإنه قال لنا ذات غداةٍ:

«إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيلَةَ آتِيَانِ، وإِنَّهُما ابْتَعَثَانِي[١]، وإِنَّهُما قَالاَ لِي: انْطَلِقْ، وإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وإِذَا هُوَ يَهْوِي[٢] بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ؛ فَيَثْلَغُ[٣] رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ[٤] الحَجَرُ هَا هُنا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ؛ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ المَرَّةَ الأُولَى، قال: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللهِ، مَا هٰذانِ؟ قال: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ[٥] مِنْ حَدِيدٍ، وإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ؛ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ[٦] إِلَى قَفَاهُ، ومَنْخِرَهُ إِلَى

---

(١) (ابتعثاني) الابتعاث: افتعال من البعث؛ وهو الإنباه والإثارة من النوم.

(٢) (يهوي) الهُوِيّ والهَوِيّ: الوقوع من العلو إلى السفل.

(٣) (يثلغ رأسه)؛ أي: يشدخ.

(٤) (فيتدهده)؛ أي: يتدحرج.

(٥) (الكلوب)؛ بفتح الكاف وضمها، وتشديد اللام: هو حديدة معوجة الرأس.

(٦) (يشرشر شدقه): يقطعه ويشقه.

قَفاهُ، وعَيْنَهُ إلَى قَفاهُ، قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلَى الجَانِبِ الآخَرِ؛ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُـودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأولى. قال: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! ما هٰذانِ؟ قال: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فانْطَلَقْنا؛ فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ؛ قال: فاطَّلَعْنا فِيهِ؛ فَإِذَا رِجَالٌ وَنِساءٌ عُرَاةٌ، وإذَا هُمْ يَأْتِيهِم لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُم، فَإِذَا أَتَاهُم ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا(١)، قال: قُلْتُ لَهُما: مَا هٰؤلاءِ؟ قال: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، قال:

فَانْطَلَقْنَا؛ فَأَتَيْنا عَلَى نَهْرٍ، وإذا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وإذا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجارةً كَثِيرةً، وإذا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجارَةَ فيَفْغَرُ(٢) لَهُ فاهُ؛ فَيُلْقِمُهُ حَجراً، فَيَنطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فاهُ؛ فَأَلْقَمَهُ حَجَراً، قال: قُلْتُ لَهُما: مَا هٰذانِ؟ قال: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، قال:

فانـطَلَقْـنـا؛ فَأَتَيْنـا عَلَى رَجُـلٍ كَرِيهِ المَـرْآةِ، كَأَكْـرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُـلاً مَرْآةً، وإذا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّها(٣) وَيَسْعَى حَوْلَها، قال: قُلْتُ لَهُما: مَا هٰذا؟ قال: قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا؛ فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ(٤) فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وإذا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّماءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُم قَطُّ، قال: قُلْتُ لَهُما: مَا هٰذا؟ مَا هٰؤلاءِ؟ قال: قَالاَ لِي:

---

(١) (ضوضوا): صاحوا مع انضمام وفزع.

(٢) (يفغر فاه): يفتحه.

(٣) (يحشها)؛ أي: يوقدها.

(٤) (مُعْتَمَّة): طويلة النبات.

انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فانْـطَلَقْنـا، فَانْتَهَيْنـا إِلى رَوْضَـةٍ عَظيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَا أَحْسَنَ، قال: قالا لِي: ارْقَ، فارْتَقَيْتُ فيها، قال: فَارْتَقَيْنا فِيها؛ فَانْتَهَيْنا إِلى مَدينَـةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّـةٍ، فَأَتَيْنـا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيها رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ راءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ راءٍ، قال: قالا لَهُم: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، قال: وإِذَا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْري كَأَنَّ مَاءَهُ المَحْضُ[1] مِنَ البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ؛ فَصارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قال:

قالا لِي: هٰذِه جَنَّـةُ عَدْنٍ وهٰـذاكَ مَنْـزِلُـكَ. قال: فَسَمَـا بَصَري صُعُداً[2]، فَإِذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبابَةِ[3] البَيْضاءِ، قال: قالا لِي: هٰذاكَ مَنْزِلُكَ، قال: قُلْتُ لَهُما: بَارَكَ اللهُ فِيكُما، ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ، قالا: أَمَّا الآنَ؛ فَلا، وَأَنْتَ داخِلُهُ، قال:

قُلْتُ لَهُما: فَإِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً؛ فَمَا هٰذا الَّذي رَأَيْتُ؟ قال: قالا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ.

أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ؛ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ بِالقُرْآنِ؛ فَيَرْفُضُهُ[4]، وَيَنامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ.

---

(١) (المحض): الخالص من كل شيء.

(٢) (فسما بصري صعداً)؛ أي: ارتفع بصري إلى فوق.

(٣) (الربابة) هنا: السحابة.

(٤) أي: يتركه؛ فلا يعمل به، ومن ترك العمل به النوم عن الصلاة المكتوبة، يوضح ذلك رواية البخاري (٣ / ٢٥٢ ـ فتح): «... فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهارِ»، والله أعلم.

وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وعَيْنُهُ إِلَى قفاهُ؛ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ.

وأَمَّا الرِّجَالُ والنِّساءُ العُراةُ الَّذينَ فِي مِثْلِ بِناءِ التَّنُّورِ؛ فَهُمُ الزُّناةُ والزَّوانِي.

وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ ويُلْقَمُ الحجرَ؛ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

وأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ الَّذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّها ويَسْعَى حَوْلَها؛ فَإِنَّهُ مَالِكٌ خازِنُ جَهَنَّمَ.

وأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذي فِي الرَّوْضَةِ؛ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، وأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذينَ حَوْلَهُ؛ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ». قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأَوْلادُ المُشْرِكِينَ».

وأَمَّا القَوْمُ الَّذينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُم حَسَناً وشَطْرٌ قَبِيحاً؛ فَإِنَّهُم قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً تَجاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ»(١).

*****

---

(١) أخرجه البخاري (١٢ / ٤٣٨ - فتح)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٧٥)، وغيرهما.

# فصل

## في عذاب الذين يفطرون قبل وقت الإفطار
## وعذاب من يمنعن أولادهن ألبانهن، وبيان حال الزناة والزواني أيضاً
## وحال قتلى الكفار

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بَيْنَـا أَنَـا نائِمٌ؛ إذْ أَتَانِي رَجُلانِ، فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ، فَأَتَيَا بِي جَبَلاً وَعْراً، فَقالَا: اصْعَدْ. فَقُلْتُ: إنِّي لا أُطِيقُهُ. فَقالَا: إنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ. فَصَعِدْتُ حَتَّى إذا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الجَبَلِ إذَا بِأَصْواتٍ شَدِيدةٍ، قُلْتُ: ما هٰذِهِ الأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هٰذا عُوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ انْطلَقَ بِي؛ فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَةٍ أَشْـدَاقُهُم، تَسِيلُ أَشْـدَاقُهُم دماً، قال: قُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰؤلاءِ الَّذينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِم، ثُمَّ انْطَلَقَ؛ فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدِّ شَيْءٍ انْتِفاخاً، وأَنْتَنِه رِيحاً، وأَسْوَئِه مَنْظَراً، فَقُلْتُ: مَنْ هٰؤُلاءِ؟ فقالَ: هٰؤلاءِ قَتْلَى الكُفَّارِ، ثُمَّ انْطلَقَ بِي؛ فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدِّ شَيْءٍ انْتِفَاخاً وأَنْتَنِه رِيحاً، كَأَنَّ رِيحَهُم المَرَاحِيضُ، قُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰؤلاءِ الزَّانُونَ والزَّوانِي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي؛ فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الحَيَّاتُ، قُلْتُ: مَا بَالُ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰؤلاءِ يَمْنَعْنَ أَوْلادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بالغِلْمَانِ يَلْعَبُونَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ، قُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰؤلاءِ ذَرارِي المُؤمِنِينَ، ثُمَّ شَرَفَ شَرَفـاً؛ فَإِذَا أَنـا بِنَفَرٍ ثَلاثَةٍ يَشْرَبُونَ مِنْ خَمْرٍ لَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰؤلاءِ جَعْفَرٌ وزَيْدٌ وَابْنُ رَوَاحَة، ثُمَّ شَرَّفَنِي شَرَفاً آخَرَ، فَإِذا أَنَا بِنَفَرٍ ثَلاثَةٍ، قُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ؟ قالَ: هٰذا إبْرَاهِيمُ وَمُوسى وَعِيسى وَهُمْ يَنْظُرُونِي»(١).

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف» (٤٨٧١)، وابن خزيمة =

# فصل

## في عذاب المتبختر في مشيته

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«بَيْنَما رجُلٌ يَتَبَخْتَرُ[1] يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ؛ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيها إِلى يَوْمِ القِيامَةِ»[2].

* * * * *

= (١٩٨٦) واللفظ له، وعنه ابن حبان (١٨٠٠ ـ موارد)، وأخرجه الحاكم (١ / ٤٣٠) مختصراً، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه غير من ذكرنا، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١ / ٤٩٢ ـ ط٣): «صحيح».

(١) (يتبختر): يمشي متكبراً معجباً بنفسه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠ / ٢٥٨ ـ فتح)، ومسلم (٢٠٨٨)، وغيرهما.

# فصل

## في عذاب الخطباء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجالاً تُقْرَضُ شِفاهُهُمْ بِمَقارِيضَ مِنْ نارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هٰؤلاءِ يا جِبْرِيلُ؟ فَقالَ: الخُطَباءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتابَ؛ أَفَلا يَعْقِلُونَ؟!»(١).

فتخيل نفسك في هٰذا العذاب يا من تعظ الناس وأنت غافل، وتنبه الخلق وأنت راقد؛ هلاَّ بنفسك بدأت أولاً؟! ما هٰذا الحرص منك على نجاة الناس؟! تؤكد عليهم الموعظة وتكرر عليهم الزجر؛ أيُعقل أن تحرص على نجاتهم أكثر من نفسك؟! لا، إنه الحرص على الشرف والمنزلة عندهم، فتطلب بوعظك إياهم محمدتهم وتهرب من مذمتهم؛ فتأمرهم بالمعروف ولا تأتيه، وتنهاهم عن المنكر وتأتيه؛ فالجنان والأركان ليس لها حظ من تأدية الأمر ولا اجتناب النهي، إنما الحظ للشفتين اللتين تشدقتا بالكلام والتهبتا برنين الخطابة، لم يتجاوزهما، من أجل ذا؛ فاستعد لقرضهما بمقاريض تلتهب ناراً.

وما أحسن تمثيل رسول الله ﷺ حال من يُعَلِّم الناس وينسى نفسه، يقول:

«مَثَلُ العالِمِ الَّذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَيَنْسى نَفْسَهُ؛ كَمَثَلِ السِّراجِ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٥ ـ موارد) وغيره، وصححه الألباني لطرقه الكثيرة في «الصحيحة» (١ / ٥٢٤).

يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحرِقُ نَفْسَهُ»[١].

وأنت يا طالب العلم! اطلب العلم لوجه الله تعالى، ونيل الزلفى لديه سبحانه، اطلبه لمعرفة الأمر فتؤديه، ومعرفة النهي فتجتنبه، لا تجعل أول همك تعليم الناس وإظهار علمك لهم، لا تتعلم العلم لتباريَ به العلماء، ولا لتجادلَ به السفهاء، لا تتعلمه حرصاً على الجاه وتكثيراً للأتباع، بل تعلمه طلباً لرضا الله تعالى، وما عنده من الجاه والأجر والثواب.

ألم تسمع قول رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»؛ يعني: ريحها[٢].

وقوله ﷺ:

«لا تَعَلَّمُوا العِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ العُلَمَاءَ، وَلا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ المَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ؛ فَالنَّارُ النَّارُ»[٣].

ثم عليك يا طالب العلم! أن تبدأ بعلم التوحيد، ومعرفة أسماء الرب جل وعلا وصفاته المجيدة، وما يستحقه من الإجلال والتعظيم، وإخلاص القصد،

---

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (رقم ٧٠) وغيره، وقال الألباني تحته: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وابن حبان (٨٩ ـ موارد)، والحاكم (١ / ٨٥)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤) وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وصحح إسناده الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١ / ٥٩).

وأخرجه أيضاً بنحوه (٢٥٣) عن ابن عمر، و (٢٥٩) عن حذيفة، و (٢٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنهم.

قبل أن تتعلم مصطلح الحديث وأصول الفقه.

أنا أعتقد أن من هجم على علم المصطلح وأصول الفقه، قبل أن ينظر في معاني أسماء الله تعالى وصفاته مثلاً، جاهل هو وأمثاله بطريق العلم، أو مراء يريد وجه الخلق.

فعليك أيها الموفق! أن تحرص أولاً على تحصيل الواجبات العينية؛ كالمحبة لله تعالى، والخوف منه، والرجاء له، والتوبة إليه، وغض البصر عن المحارم، وغير ذلك، وأن تعرف فقه الطهارة والصلاة، وسائر ما يجب عليك من حق الله تعالى وحق الخلق.

وأن تتعلم الأخلاق العظيمة؛ كالإخلاص والتواضع والإنصاف ونحوها، قبل أن تتعلم مصطلح الحديث، وأصول الفقه، وعلم النحو، وغيرها من الواجبات الكفائية(1).

وبالجملة؛ أن يكون همك زكاة نفسك بالتوحيد، والإخلاص، والاتباع، والمراقبة للرب جل وعلا، والتوبة إليه، والوجل منه، والإخبات إليه، والذكر

---

(1) وقد تكون هذه عينية إذا لم يقم بها مَنْ يكفي، ونحن والحمد لله لا نُزَهِّد في هذه العلوم بل نتعلمها ونحث على تعلمها، لكن؛ ليس قبل التوحيد والأخلاق والتزكية، وسائر الواجبات العينية؛ فهمتنا التمسك بالعلم الصافي والتربية عليه، ولا نقول: تصفية وحدها، ولا تربية وحدها، ولا نقول: كفانا تصفية، بل نقول كما يقول شيخنا حفظه الله: تصفية وتربية، وما قاله سلفنا من قبل: رواية ودراية ورعاية، فنسأل الله تعالى أن لا نموت قبل التربية والرعاية.

ولا يفوتني أن أنبه على أمر، وهو أنني لا أعني بكلامي هذا أنه لا يجوز لطالب العلم أن يتعلم شيئاً من فروض الكفاية أثناء اشتغاله بفروض العين؛ علماً وعملاً، لا أظن - أبداً - أن عاقلاً يفهم هذا من كلامي؛ فليعلم.

ثم إن الموضوع يحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه، وضبطٍ يُرجع فيه إلى أهل العلم؛ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣].

الكثير له سبحانه، وتدبر كلامه العظيم حرصاً على الهداية والنجاة في الآخرة، لا أن يكون همك الجاه عند الناس.

فإذا سلكت طريق التزكية هذه؛ استطعت أن تتعلم المصطلح والأصول لوجه الله تعالى، ونلت بتعلمها رفعة الدرجات في الآخرة.

وإذا سلكت طريق التزكية؛ لم تتكبر على الناس إذا كنت أعلم منهم، بل تتواضع لهم، وتشفق عليهم، وتُعَلِّمهم من أجل الله تعالى.

فالأخلاقَ الأخلاق يا طلبة العلم، والخشيةَ الخشية من الله تعالى، والحذَر الحذر من تحقير العلم بطلبه لغير الله تعالى، والعملَ العمل بما تتعلمون قبل أن يَحِل عليكم سخط الله تعالى.

فالعلم بدون خُلُق؛ شَيْن، والعلم بدون خشية؛ جهل، والعلم بدون إخلاص؛ هباء، والعلم بدون عمل؛ شقاء؛ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

ولبعضهم[1]:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِنِ انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وليحيى بن معاذ[2]:

مواعِظُ الواعِظِ لَنْ تُقْبَلا ... حَتَّى يَعِيهَا نَفْسُهُ أَوَّلا
يَا قَوْمُ مَنْ أَظْلَمُ مِنْ وَاعِظٍ ... قَدْ خَالَفَ قَالَهُ فِي الْمَلا

(١) «لطائف المعارف» (ص ١٥).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ١٤).

أَظْـهَـرَ بَيْنَ النَّـاسِ إِحْسَـانَـهُ    وَبَـارَزَ الـرَّحْـمَـنَ لَمَّـا خَلَا

وللصوري[1]:

كَمْ إِلَـى كَمْ أَغْـدُو إِلَى طَلَبِ العِلْـ    ـمِ مُجِـدّاً فِي جَمْـعِ ذَاكَ حَفِـيًّا
طَالِـبـاً مِنْـهُ كُلَّ نَوْعٍ وَفَـنٍّ    وغَـرِيبٍ وَلَـسْـتُ أَعْـمَـلُ شَيًّا
وإِذَا كَانَ طَالِـبُ الـعِـلْمِ لَا يَعْـ    ـمَلُ بِالْـعِـلْمِ كَانَ عَبْـداً شَقِـيًّا
إِنَّـمَـا تَنْـفَـعُ الـعُـلُومُ لِمَنْ كَا    نَ بِهَـا عامـلًا وكَـانَ تَقِـيًّا

ولابن المبارك[2]:

وَكَـيْفَ قَرَّتْ لأَهْـلِ العِلْمِ أَعْيُنُهُم    أَوِ اسْتَلَذُّوا لَذيذَ العَيْشِ أَوْ هَجَعُـوا
والـمَـوْتُ يُنْـذِرُهُـم جَهـراً عَلَانِيَةً    لَوْ كَانَ للقَـوْمِ أَسْمَـاعٌ لَقَـدْ سَمِعُوا
والـنَّـارُ ضَاحِـيَةٌ لَا بُدَّ مَوْرِدُهُـم    وَلَـيْسَ يَدْرونَ مَنْ يَنْجُـو وَمَنْ يَقَـعُ
لِيَنْفَـعَ العِلْمُ قَبْـلَ المَـوْتِ عَالِمَـهُ    قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَـا الرُّجعى فَمَا رَجَعُوا

*****

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص ٥٧).

(٢) «ديوانه» (ص ٥٥).

# الباب الثالث

## في حال أهل الندامة من حين النفخ في الصور
## إلى وقت إلقائهم في النار
## وذكر الصراط وهوله
## وذكر القنطرة بين الجنة والنار

# فصل

## في حالهم عند النفخ في الصور والخروج من القبور

قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[1].

قال ابن قتيبة[2]: «﴿الأجْدَاثِ﴾: القبور، واحدها: جَدَث.

و﴿يَنسِلُونَ﴾: من النَّسَلان، وهو مقاربة الخطو مع الإسراع، كمشي الذئب إذا بادر».

وقال السعدي[3]: «يسرعون بين يدي ربهم لا يتمكنون من التأني والتأخر، وفي تلك الحال يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا﴾؛ أي: من رقدتنا في القبور».

قال ابن كثير[4]: «وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما

---

(١) يس: ٥١ - ٥٣.

(٢) «تفسير غريب القرآن» (ص ٣٦٦ و٢٨٨).

(٣) انظر: «التيسير» (٤ / ٢٤١).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٥٧٤).

بعده في الشدة كالرقاد».

وقال الشنقيطي[١]: «والآية تدل دلالة لا لَبس فيها على أنهم ينامون نومة قبل البعث؛ كما قاله غير واحد»[٢].

وقال الله تعالى:

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[٣].

قال الشنقيطي[٤]: «معنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف».

وقال السعدي[٥]: «﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق؛ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة، والقلاقل المفظعة، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم، وأنهم يَدْعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات، ويقولون: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة؛ لماتوا».

وقال سبحانه:

---

(١) «أضواء البيان» (٦ / ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٢) منهم ابن جرير؛ كما في «جامع البيان» (٢٣ / ١١)، ورواه عن أبي بن كعب رضي الله عنه وغيره.

(٣) الأنبياء: ٩٧.

(٤) «أضواء البيان» (٣ / ١١٤).

(٥) «التيسير» (٣ / ٣٠٠).

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(١).

قال السعدي(٢): «﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾؛ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم؛ فخضعت وذلت وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور، ﴿كَأَنَّهُم﴾ من كثرتهم وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾؛ أي: مبثوث في الأرض متكاثر جداً.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾؛ أي: مسرعين لإجابة نداء الداعي، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم، ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة؛ فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته.

﴿يَقُولُ الكَافِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾».

وقال ابن كثير(٣): «﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾؛ أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال، ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾؛ أي: ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾؛ أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف

---

(١) القمر: ٦ - ٨.

(٢) «التيسير» (٥ / ١٣٦).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٦٣).

الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين، ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ الكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾؛ أي: يوم شديد الهول عبوس قمطرير، ﴿فذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾»(1).

وقال سبحانه:

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۞ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾(2).

قال السعدي(3): «﴿فَذَرْهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا، ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُم الَّذي يُوعَدُونَ﴾؛ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون؛ فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور ﴿سِراعاً﴾ مجيبين لدعوة الداعي مهطعين إليها.

﴿كَأَنَّهُم إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾؛ أي: كأنهم إلى عَلَم يؤمون ويقصدون، فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعي، ولا الالتواء عن نداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين بين يدي رب العالمين.

﴿خاشِعَةً أَبْصارُهُم تَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ﴾، وذلك أن الذلة والقلق قد ملك

---

(1) المدثر: ٩ و١٠.

(2) المعارج: ٤٢ ـ ٤٤.

(3) «التيسير» (٥ / ٣٠٩).

قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت الحركات، وانقطعت الأصوات، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحال والمآل هو ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله».

*****

# فصل

## في هول الأمر إذا فزعوا وفظاعته

قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾[1] .

قال السعدي[2] : «يقول تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرسول ومن قام مقامك حال هٰؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسل وما كذَّبوا به ؛ لرأيت أمراً هائلاً ، ومنظراً مفظعاً ، وحالة منكرة ، وشدة شديدة ، وذلك حين يحق عليهم العذاب ؛ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم وليس لهم عنه مهرب ، ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ؛ أي : ليس بعيداً عن محل العذاب ، بل يؤخذون ثم يقذفون في النار» .

وقال ابن كثير[3] : «﴿فَلَا فَوْتَ﴾ ؛ أي : فلا مفر لهم ، ولا وَزَرَ لهم ، ولا ملجأ ، ﴿وأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ؛ أي : لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة .

﴿وقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ ؛ أي : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله .

---

(١) سبأ : ٥١ ـ ٥٤ .

(٢) «التيسير» (٤ / ٢٠٠) .

(٣) انظر : «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٥٤٤) .

﴿وأنّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ؛ أي : كيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء؟! فلو كانوا آمنوا في الدنيا ؛ لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ؛ كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن تناوله من بعيد» .

*****

# فصل

## في شدة كربهم
## وامتلاء قلوبهم بالخوف والحزن والغم والهم

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾؛ أي: منزعجة من شدة ما ترى وتسمع.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾؛ أي: ذَلِيلةٌ حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، واستولت عليهم الحسرة».

وقال سبحانه:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[3].

قال الشنقيطي[4]: «﴿وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ﴾؛ أي: أنذرهم يوم القيامة، بمعنى: خوفهم إياه، وهددهم بما فيه من الأهوال العظام؛ ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة.

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها؛ أي: قربها.

---

(١) النازعات: ٦ ـ ٩.

(٢) «التيسير» (٥ / ٣٦٦).

(٣) غافر: ١٨.

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٧ / ٧٩ ـ ٨١).

والمعنى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾؛ أي: يوم القيامة القريب مجيئها ووقوعها.

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر في ذلك الوقت، فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان:

**أحدهما**: ما قاله قتادة وغيره من أن قلوبهم يومئذ ترتفع من أماكنها في الصدور حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر؛ فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا، وهذا القول هو ظاهر القرآن.

**والوجه الثاني**: هو أن المراد بكون القلوب لدى الحناجر بيان شدة الهول وفظاعة الأمر.

وقوله تعالى: ﴿كَاظِمِينَ﴾ معناه: مكروبين ممتلئين خوفاً وغمّاً وحزناً.

و(الكظم) تردد الخوف والغيظ والحزن في القلب حتى يمتلىء منه ويضيق به.

والعرب تقول: كظمت السقاء؛ إذا ملأته ماء وشددته عليه.

وقول بعضهم: ﴿كَاظِمِينَ﴾؛ أي: ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام؛ فلا يقدرون عليه».

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1].

---

(1) إبراهيم: ٤٢ و٤٣.

قال ابن كثير[1]: «يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم، ويعده عليهم عدّاً، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، وعجلتهم إلى قيام المحشر؛ فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين.

وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾؛ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة، مديمون النظر، لا يطرفون لحظة؛ لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾؛ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية؛ لأن القلوب لدى الحناجر، قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف».

*****

(1) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٤١) باختصار.

# فصل

## في حشر المجرمين يوم القيامة زرقاً

قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾(١) .

قال السعدي(٢) : «أي : إذا نفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم كل على حسب حاله ؛ فالمتقون يحشرون إلى الرحمٰن وفداً ، والمجرمون يحشرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش ، يتناجون بينهم ويتخافتون في قصر مدة الدنيا وسرعة الآخرة ؛ فيقول بعضهم : ما لبثتم إلا عشرة أيام ، ويقول بعضهم غير ذلك ، والله يعلم تخافتهم ويسمع ما يقولون : ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُم طَرِيقَةً﴾ ؛ أي : أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إِنْ لَبِثْتُم إِلاَّ يوماً﴾ .

والمقصود من هٰذا ؛ الندم العظيم ؛ كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم ، مقبلين على ما يضرهم ؛ فها قد حضر الجزاء وحق الوعيد ؛ فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور» .

* * * *

(١) طه : ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(٢) «التيسير» (٣ / ٢٥١) .

# فصل

## في حشر المتكبرين أذلاء حقيرين

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال:

«يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[1] فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُم نَارُ الأَنْيَارِ[2]، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةِ الخَبَالِ[3]»[4].

*****

---

(١) (الذر): صغار النمل.

(٢) (الأنيار): جمع نار.

(٣) (طينة الخبال): هي عصارة أهل النار؛ كما هي مفسرة في الحديث، وهي ما يسيل منهم من القيح والدم وغيره، وفي «النهاية»: «(الخبال) في الأصل: الفساد، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٢ / ١٧٩)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

# فصل

## في تصغير المرائي وتحقيره يوم القيامة

حدث عبدُ الله بن عمرو عبدَ الله بن عُمر رضي الله عنهم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بعَمَله سَمَّعَ اللهُ به سَامِعَ خَلْقِهِ وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»؛ قال: فذرفت عينا عبد الله بن عمر[1].

وعن جندب بن عبد الله البَجَلي ثم العَلَقي رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَاءِ يُرَاءِ اللهُ بِهِ»[2].

فتأمل كيف جزاه الله تعالى من جنس عمله، فإنه لمَّا أظهر عمله للناس وراءى به؛ فضحه الله تعالى وشهَّر به أمام الخلائق جزاءً وفاقاً.

ولمَّا كان المرائي والمسمع بعمله إنما يريد محمدة الناس والمنزلة عندهم ليعظموه ويكرموه؛ عامله الله بعكس ذلك؛ ففضحه أمامهم، وصغره؛ فلم يعظمه، وحقره؛ فلم يكرمه.

وأيضاً؛ فإن سبب الرياء والتسميع تعظيم الخلق، وضعف عظمة الله تعالى في القلوب؛ فَحَرِصَ المرائي على المنزلة والجاه عند الناس الذين يعظمهم ويهتم بشأنهم ويراعي نظرهم إليه، ولم يحرص على المنزلة عند الله تعالى، ولم يراعِ اطلاعه عليه؛ فحَقَّره الله تعالى من أجل ذلك وَصَغَّره، فسبحان

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ١٦٢ و١٩٥ و٢١٢ و٢٢٣) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ٣٣٦ و١٣ / ١٢٨ ـ فتح)، ومسلم (٢٩٨٧)، وغيرهما.

من يجازي عباده من جنس أعمالهم ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

وعن محمود بن لبيد؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال:

«الرِّياءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُم تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»[1].

وفي «الرياض الناضرة»[2]: «المرائي مع ضعف دينه قد ضعف عقله؛ فإنه راءى المخلوقين الفقراء العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن غيرهم - نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ومن عمل لأجلهم؛ فقد اعتمد على غير معتمد، واتكأ على شفا جرف هار.

والمخلصون هم أهل الهمم العالية والأجور الفاضلة، والجزاء بحسب الإخلاص، والأعمال بالنيات، والعمل القليل من المخلص يزنُ الأعمال الكثيرة ممن لم يكن كذلك، والمخلصون هم الذين يخلصهم الله في الدنيا من الفتن والآثام، ومن العقوبات والآلام، وبإخلاصهم يُحِلُّهم المقامات العالية في دار السلام.

والإخلاص هو السبب الوحيد المنجي من المكاره، المحصل للمحاب كلها، والله لم يخلق الخلق إلا ليخلصوا له الدين، ويقوموا بعبوديته وحده لا شريك له، ومن راءى الناس بعمله؛ فقد خسر دينه وعقله وعلمه، وتعلق بغير متعلَّق».

---

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٤٢٨ و٤٢٩) وغيره، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ٦٨).

(٢) (ص ١٣٤) بتصرف.

وقال شيخ الإسلام[1]: «ينبوع الخير وأصله؛ إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة، بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب، من فاقة وحاجة ومخافة، وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب، ومَن أحكم هذا؛ فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك».

وقال[2]: «إذا كان العبد مخلصاً لله؛ اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه؛ فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله؛ فإن فيه طلباً وإرادة وحبّاً مطلقاً؛ فيهوى كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه؛ كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله».

وقال ابن القيم[3]: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص؛ فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبْحُ الطمع والزهدُ في الثناء والمدح؛ سَهُل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يُسهِّل عليَّ ذبحَ الطمع والزهدَ في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبح الطمع؛ فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح؛ فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمُّه ويشين إلا الله وحده؛ كما قال ذلك الأعرابي للنبي

---

(1) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٩).

(2) «العبودية» (ص ١٤٠ ـ ١٤١).

(3) «الفوائد» (ص ١٩٥).

ﷺ : إن مدحي زَين وذمي شَين، فقال: « ذلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »[1]؛ فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذمِّ من لا يشينك ذمُّه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمِّه، ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب».

وقال ابن الجوزي[2]: «ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً؛ لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم.

فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل وإخلاص القصد وستر الحال هو الذي رفع من رفع، واليوم صارت الرياسات أكثر من كل حاجة، وما تتمكن الرياسات حتى تتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق ونسيان الحق، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا.

فالتفتوا إخواني إلى إصلاح النيات وترك التزين للخلق، ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق. فبذلك صعد السلف وسعدوا».

وفي «التبصرة»[3]: «لله در أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها، وقيدوا شهواتها بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلَّصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها».

---

(١) عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾؛ قال: قام رجل، فقال: يا رسول الله! إن حمدي زين، وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «ذاك اللَّهُ عزَّ وجلَّ».

أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وحسنه، والرجل هو الأقرع بن حابس رضي الله عنه؛ كما في «مسند أحمد» (٣ / ٤٨٨ و٦ / ٣٩٣) بإسناد حسن؛ فصح به حديث البراء.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٢٥١ ـ ٢٥٢) مختصراً.

(٣) (١ / ٤٨٤).

وفي «المدهش»[1]: «يا من أعماله رياء وسمعة، يا من أعمى الهوى بصره وأصم سمعه، يا من إذا قام إلى الصلاة لم يخلص ركعة، يا نائماً في انتباهه إلى متى هٰذه الهجعة؟».

وفي غيره: «ويلك؛ لا تجيء بمحض العلم فحسب، كما لا تنفع دعوى بلا بينة؛ لا ينفع علم بلا عمل.

يا تاركين العمل بالعلم! أحدكم يحذق الشعر بعبارته وفصاحته وبلاغته وليس له عمل ولا إخلاص، لو تهذب قلبك لتهذبت جوارحك؛ لأنه ملك الجوارح، فإذا تهذب الملك؛ تهذبت الرعية».

*****

(١) (ص ٣٩٧).

# فصل

## في عذاب من لا يخرج الحق الواجب من ماله

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّم فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم هَذا مَا كَنَزْتُم لأَنْفُسِكُم فَذُوقُوا مَا كُنْتُم تَكْنِزُونَ﴾؛ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً؛ كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[3]؛ أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم، ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله؛ عذب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثَرَ عندهم من رضا الله عنهم؛ عذبوا بها؛ كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ، وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾؛ أي عنقها ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[4]؛ أي: تجمع من الحطب في النار، وتلقي عليه؛ ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة؛ فيحمى عليها في نار جهنم ـ وناهيك بحرها ـ؛ فتكوى بها جباههم وجنوبهم

---

(١) التوبة: ٣٤ و٣٥.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٣٥١ ـ ٣٥٢).

(٣) الدخان: ٤٨ و٤٩.

(٤) المسد: ٥.

وظهورهم».

وفي «صحيح مسلم»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قيل: يا رَسُولَ الله! فالإبل؟ قال:

«ولا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ[2] أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا؛ رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قيل: يا رسول الله! فالبقر والغنم؟ قال:

«ولا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلَا جَلْحَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ[3] تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا[4]، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا؛ رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ

---

(1) (رقم ٩٨٧).

(2) (القاع): المستوى الواسع من الأرض، يعلوه ماء السماء فيمسكه، و(القرقر): المستوى ـ أيضاً ـ من الأرض الواسع. «نووي».

(3) قال أهل اللغة: (العقصاء): ملتوية القرنين، و(الجلحاء): التي لا قرن لها، و(العضباء): التي انكسر قرنها الداخل. «نووي».

(4) (الأظلاف): جمع ظِلْف، وهو للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس.

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ؛ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ، وإِمَّا إِلَى النَّارِ. . . » الحديث.

وفيه[١] عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا، إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ قَطُّ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسْتَنُّ عَلَيْهِ بِقَوَائِمِهَا وَأَخْفَافِهَا، ولَا صَاحِبِ بَقَرٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا، إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِقَوَائِمِهَا، ولَا صَاحِبِ غَنَمٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا، إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ، وقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا، لَيْسَ فِيهَا جَمَّاءُ[٢] وَلَا مُنْكَسِرٌ قَرْنُهَا، ولَا صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ؛ إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ[٣] يَتْبَعُهُ فَاتِحاً فَاهُ، فَإِذَا أَتَاهُ؛ فَرَّ مِنْهُ، فَيُنَادِيهِ: خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لَا بُدَّ مِنْهُ؛ سَلَكَ يَدَهُ فِي فِيهِ، فَيَقْضَمُهَا قَضْمَ الفَحْلِ[٤]».

وفي «الصحيحين»[٥] عن الأحنف بن قيس، قال: قدمت المدينة، فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش؛ إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه؛ فقام عليهم، فقال:

---

(١) (رقم ٩٨٨).

(٢) هي الشاة التي لا قرن لها كجلحاء، مذكره أجمّ.

(٣) (الشجاع): الحية الذكر، و(الأقرع): الذي تمعّط شعره لكثرة سمّه، وقيل: (الشجاع) الذي يواثب الراجل والفارس ويقوم على ذنبه، وربما بلغ رأس الفارس ويكون في الصحاري. «نووي».

(٤) يقال: قَضِمَت الدابة شعيرها تَقْضَمه إذا أكلته. «نووي».

(٥) «صحيح البخاري» (٣ / ٢٧٢ ـ فتح)، و«صحيح مسلم» (٩٩٢).

«بَشِّرِ الكَانِزِينَ بِرَضْفٍ[1] يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُوضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِم، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتِفَيْهِ[2]، وَيُوْضَعُ عَلَى نُغْضِ كَتِفَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيَيْهِ يَتَزَلْزَلُ[3]». قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً[4]. قال: فأدبر واتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هٰؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، قال: إن هٰؤلاء لا يعقلون شيئاً، إن خليلي أبا القاسم ﷺ دعاني فأجبته، فقال:

«أَتَرَى أُحُداً؟»، فنظرت ما عليَّ من الشمس[5] وأنا أظن أنه يبعثني في حاجة له، فقلت: أراه، فقال:

«مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي مِثْلَهُ ذَهَباً أُنْفِقُهُ كُلَّهُ إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ»، ثم هٰؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئاً، قال: قلت: ما لك ولإخوتك من قريش لا تعتريهم[6] وتصيب منهم؟ قال: لا وربك لا أسألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألحق بالله ورسوله.

(وفي رواية لمسلم) قال الأحنف بن قيس لأبي ذر رضي الله عنه: ما شيء سمعتك تقول قبيل؟ قال: ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيهم ﷺ.

*****

---

(١) (الرضف): الحجارة المحماة، الواحدة رضفة.

(٢) هو العظم الرقيق الذي على طرف الكتف.

(٣) التزلزل إنما هو للرضف؛ أي: يتحرك من نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثدييه، قاله القاضي «نووي».

(٤) أي: ما رأيت أحداً أجابه.

(٥) يعني: كم بقي من النهار.

(٦) أي: تأتيهم وتطلب منهم. «نووي».

# فصل

## في عذاب النائحة إذا لم تتب

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»[1].

قوله ﷺ: (ودرع من جرب)؛ يعني: يسلط على أعضائها الجرب والحكة، بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع.

قال المناوي[2]: «أي: يصير جلدها أجرب حتى يكون جلدها كقميص على أعضائها، و(الدرع): قميص النساء، و(القطران): دهن يدهن به الجمل الأجرب، فيحترق لحدته وحرارته، فيشتمل على لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في الجلد، واللون الوحش، ونتن الريح جزاءً وفاقاً، فخصت بذلك الدرع لأنها كانت تجرح بكلماتها المؤنقة قلب المصاب، وبلون القطران لكونها كانت تلبس السواد في المآتم».

*****

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) وغيره.

(٢) «فيض القدير» (٦ / ٢٩٣).

# فصل

## في عذاب من لبس ثوب شهرة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا؛ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَاراً»[1].

# فصل

## في عذاب من أكل برجل مسلم أكلة.

عن المستورد بن شداد رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ أَكَلَ بِمُسْلِمٍ أَكْلَةً؛ أَطْعَمَهُ اللهُ بِهَا أَكْلَةً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ أَقَامَ بِمُسْلِمٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ؛ أَقَامَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ، وَمَنِ اكْتَسَى بِمُسْلِمٍ ثَوْباً؛ كَسَاهُ اللهُ ثَوْباً مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

*****

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٧) واللفظ له، وحسنه الألباني في «حجاب المرأة المسلمة» (ص ٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨١)، والحاكم (٤ / ١٢٧ ـ ١٢٨) وغيرهما، وصححه الألباني لطرقه في «الصحيحة» تحت الرقم (٩٣٤).

# فصل

## في حسرة أهل الندامة على ما فرَّطوا في أمر الساعة

قال الله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1].

قال في «فتح البيان»[2]: «﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾، هٰذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم، وحصول العذاب الأليم في دركات الجحيم.

﴿حَتَّى﴾؛ غاية للتكذيب لا للخسران؛ فإنه لا غاية له ﴿إِذَا جَاءَتْهُم السَّاعَةُ﴾ القيامة، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفجأ الناس ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله، يقال: بَغَتَهُم الأمر يَبْغَتُهم بغتاً وبغتةً، قال سيبويه: وهي مصدر، ولا يجوز أن يقاس عليه؛ فلا يقال: جاء فلان سرعةً.

و(البَغْت) و(البَغْتَة): مفاجأة الشيء بسرعة من غير اعتداد له، ولا جعل بال منه، حتى لو استشعر الإنسان به، ثم جاء بسرعة لا يقال فيه بغتة.

﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ أوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة؛ ليدل ذٰلك على كثرة تحسرهم، والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهٰذا أوانك، وكذا قال سيبويه في هٰذا النداء وأمثاله، كقولهم: يا للعجب ويا

---

(١) الأنعام: ٣١.

(٢) انظر: (٤ / ١٢٧ - ١٢٨)، وانظر أيضاً: «فتح القدير» (٢ / ١١١).

للرجال.

وقيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة؛ كأنهم قالوا: يا أيها الناس! تنبهوا على ما نزل بنا من الحسرة، و(الحسرة): الندم الشديد، والتلهف والتحسر على الشيء الفائت.

﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ أي: على تفريطنا في الساعة؛ أي: في الاعتداد لها، والاحتفال بشأنها، والتصديق بها، ومعنى فرطنا: ضيعنا.

وقيل: (التفريط): التقصير في الشيء مع القدرة على فعله».

وقال ابن جرير الطبري[1]: «إن الضمير في ﴿فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يرجع إلى الصفقة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم؛ ببيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة؛ قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا في صفقتنا، وإن لم تذكر في الكلام؛ فهو دال عليها، لأن الخسران لا يكون إلا فيها.

وقيل: الضمير راجع إلى الحياة؛ أي: على ما فرطنا في حياتنا»[2].

وفي «إرشاد العقل»[3]: «قوله تعالى: ﴿وهُم يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُم عَلَى ظُهُورِهِم﴾ حال من فاعل ﴿قَالُوا﴾ فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال، بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال، والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٧ / ١١٣).

(٢) قلت: الذي أختاره هو القول الأول، وأن الضمير يرجع إلى الساعة؛ لأن السياق يدل عليه، والمعنى: يا ندامتنا على ما فرطنا في شأن الساعة، فلم نرع حقها، ولم نستعد لها بالإيمان والعمل الصالح، بل اجترحنا السيئات، واجترأنا على المحرمات، واقترفنا الموبقات.

(٣) (٢ / ١٤٠ - ١٤١).

يكـابدونه من فنون العقوبات، والسر في ذلك أن العذاب الروحاني أشد من الجسماني، نعوذ برحمة الله عز وجل منهما.

و(الوزر) في الأصل: الحمل الثقيل، سمي به الإثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه».

* * * * *

# فصل

## في ذهاب الأنساب يوم القيامة

## وتقطع الأسباب، وعداوة الأصحاب، وفرار المرء من أخيه وأمه وأبيه

قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم؛ أنهم يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله لاشتغاله بنفسه؛ فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟».

وقال سبحانه:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: «قوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾؛ أي: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) «التيسير» (٣ / ٣٧٥).

(٣) البقرة: ١٦٦ و١٦٧.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (١ / ٢٠٣).

معدلاً ولا مصرفاً».

وقال الطبري[1]: «الصواب من القول في تأويل قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أن يقال، أن الله تعالى ذكره؛ أخبر أن الذين ظلموا أنفسهم من أهل الكفر الذين ماتوا وهم كفار؛ يتبرأ عند معاينتهم عذاب الله المتبوعُ من التابع، وتتقطع بهم الأسباب، وقد أخبر تعالى ذكره في كتابه أن بعضهم يلعن بعضاً، وأخبر عن الشيطان أنه يقول لأوليائه: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[2]، وأخبر تعالى ذكره أن الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين، وأن الكافرين لا ينصر يومئذ بعضهم بعضاً، فقال تعالى ذكره: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْؤُولُونَ . مَا لَكُم لَا تَنَاصَرُونَ﴾[3]، وأن الرجل منهم لا ينفعه نسيبه ولا ذو رحمه، وإن كان نسيبه لله وليّاً، فقال تعالى ذكره في ذٰلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[4]، وأخبر تعالى ذكره أن أعمالهم تصير عليهم حسرات، وكل هٰذه المعاني أسباب يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب؛ فقطع الله منافعها في الآخرة عن الكافرين به؛ لأنها كانت بخلاف طاعته ورضاه، فهي منقطعة بأهلها؛ فلا خلال بعضهم بعضاً ينفعهم عند ورودهم على ربهم، ولا عبادتهم أندادهم، ولا طاعتهم شياطينهم، ولا دافعت عنهم أرحام؛ فنصرتهم من انتقام الله منهم، ولا أغنت عنهم أعمالهم، بل صارت عليهم حسرات؛ فكل أسباب الكفار منقطعة» اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾؛

---

(١) «جامع البيان» (٢ / ٤٣ - ٤٤).

(٢) إبراهيم: ٢٢.

(٣) الصافات: ٢٤ و٢٥.

(٤) التوبة: ١١٤.

(الحسرات) جمع حسرة، و (الحسرة) أشد الندم، فالمعنى: أن الله تعالى يُري الكافرين أعمالهم الخبيثة، وقد تلاشت واضمحلت، ندامات شديدة عليهم؛ «لِمَ عملوا بها، وهلاّ عملوا بغيرها»[1].

وقال سبحانه:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾[4].

قال ابن كثير[5]: «﴿ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . يُبَصَّرُونَهُم﴾، أي: لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا؛ ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤٥).

(٢) الزخرف: ٦٧.

(٣) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩.

(٤) المعارج: ١٠ ـ ١٨.

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٢٥٦).

بعوضة».

وقال سبحانه:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(١).

قال السعدي(٢): «أي: إذا جاءت صيحة القيامة؛ التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ؛ مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال؛ ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ من أعز الناس عليه وأشفقهم عليه؛ ﴿مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ﴾؛ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾، وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ أي: قد شغلته نفسه واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها».

وقال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٣).

قال القاسمي(٤): «معنى ﴿تُجَادِلُ﴾؛ أي: تحاجّ وتسعى في خلاصها، لا يهمها إلا ذاتها وشأنها، ولا يغني عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شيء ما» اهـ.

فتخيل نفسك يا عبد الله! وقد اشتد لهول القيامة كربك، وعظم لخطرها غمك، وحضر حزنك وهمك، ولم ينفعك اعتذارك ولا ندمك، ولم يسعفك

---

(١) عبس: ٣٣ - ٣٧.

(٢) «التيسير» (٥ / ٣٧٤).

(٣) النحل: ١١١.

(٤) «محاسن التأويل» (١٠ / ١٦٧).

صاحب، ضيعت دينك لتحصيل دنياه، ولم ينفعك من قدمت حبه على حب مولاك، واشتغلت بنيل شهوة منه مؤقتة ولذة منقطعة منغصة.

ويا ليتك تبت قبل الممات، واعتذرت إلى مولاك قبل الفوات، بل فاجأك الموت على حين غِرَّة، في ساعة لم تحسب لها ولم تستعد لشدتها؛ فانتقلت إلى الحفرة وسُوِّي عليك اللَّبِن، وانقطعت عن الدنيا وأهلها، وفارقت اللذات، وحيل بينك وبين الشهوات.

وليت الأمر وقف عند هٰذا، بل أصبحت مرتهناً بعملك القبيح، والداهية العظيمة أنك لا تستطيع أن تصلح ما فات، أو تزيد في الحسنات، قد انقطع والله وقت العمل.

ففكر ويحك! فكر بجد؛ فإنك في نعمة عظيمة وفرصة غالية، لو انتهزتها بطاعة مولاك وذكره والإقبال عليه؛ لفزت بالنعيم الأبدي؛ نعيم أبدي لا ينقطع، تناله بعمل تعمله في سنوات معدودة، ﴿إِنَّ هٰذا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

فالمبادرة المبادرة قبل القيد يا مطلق، والمسارعة المسارعة قبل السجن يا حر.

والتوبة التوبة قبل الموت، والإنابة الإنابة قبل الفوت، والندم الندم قبل أن تعض أصابع الندم، وتبكي بدل الدمع الدم.

## فصل

فإذا ندمت الآن على ذنـوبك، وتوجع قلبك بسببها، واشتد خوفك من عاقبتهـا، ورجوت الله في غفرانها؛ فبادر بالإقلاع عنها، فإنها ـ والله ـ ساعة التوبة؛ فلا تعجز واستعن بالله تعالى، وتوسل إليه برحمته أن يُقيلك إياها، وادعه

بأسمائه الحسنى ألاّ يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً، فإنه جل وعلا إن وَكَلَكَ إليها وكلك إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة[1].

وأبشر يا عبد الله! فـ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ، والتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»[2]، كما جاء عن المبعوث رحمة للعالمين ﷺ.

قال المناوي[3]: «الندم أعظم أركان التوبة، وهو شيء متعلق بالقلب، والجوارح تبع له، فإذا ندم القلب؛ انقطع عن المعاصي؛ فرجعتْ برجوعه الجوارح».

وقال: «من ألفاظهم البليغة: مخلب المعصية يُقص بالندامة، وجناح الطاعة يوصل بالإدامة» اهـ.

يَا ندَامَـايَ صَحَـا الـقَلْبُ صَحَـا ... فَاطْـرُدُوا عَنِّي الصِّبَـا وَالمَـرَحَـا
زَجَـرَ الـوَعْظُ فُؤادي فَارْعَـوَى ... وَأَفَـاقَ الـقَـلْبُ مِنِّـي وَصَـحَـا
هَزَمَ الـعَـزْمُ جُنُـوداً لِلْهَـوَى ... فَاسِـدِي لَا تَعْجَبُـوا إِنْ صَلَحَـا
بَادِرُوا التَّـوْبَـةَ مِنْ قَبْـلِ الـرَّدَى ... فَمُـنَـادِيه يُنَـادِينـا الـوَحَـا

* * * * *

(١) كما في آخر «دعاء الصباح» الذي رواه أحمد (٥ / ١٩١) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٦٦٠ ـ ط ١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٣٠٦ / ح ٧٧٥) وغيره، وهو في «صحيح الجامع» (برقم ٦٦٧٩).

وأخرج ابن ماجه (٤٢٥٢) الجملة الأولى منه و(٤٢٥٠) الجملة الثانية، وهما مثبتان في «صحيح ابن ماجه».

(٣) «فيض القدير» (٦ / ٢٩٨).

# فصل

## في قيام الناس لرب العالمين

قال الله تعالى:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «قال الله تعالى متوعداً لهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه؛ أدخل ناراً حامية؟

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: يقومون حفاة عراة غرلاً، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القُوى والحواس عنه» اهـ.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ قال:

«﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُم فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُم فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً، ويُلْجِمُهُم حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُم»[4].

---

(١) المطففين: ٤ ـ ٦.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨ / ٦٩٦ و١١ / ٣٩٢ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٦٢)، وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري (١١ / ٣٩٢ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٦٣).

وعن سليم بن عامر: حدثني المقداد بن الأسود؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تُدْنى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنهُم كَمِقْدارِ مِيلٍ».

قال سليم بن عامر: فوالله؛ ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال:

«فيَكُونُ النَّاسُ عَلى قَدْرِ أَعْمالِهِم في العَرَقِ؛ فَمِنْهُم مَنْ يَكُونُ إِلى كَعْبَيْهِ، ومِنْهُم مَنْ يَكُونُ إِلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُم مَنْ يَكُونُ إِلى حَقْوَيْهِ، ومِنْهُم مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلْجاماً». قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه(١).

*****

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) وغيره.

# فصل

## في عرض أهل الندامة على الرب جل وعلا
## وهول موقفهم بين يديه

قال الله تعالى:

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم﴾؛ أي: أوقفوا بين يديه».

وقال السعدي[4]: «أي: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الكافرين ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم﴾؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً ومقرعاً، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بِالحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾؛ فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُونَ﴾».

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

(١) الكهف: ٤٨.

(٢) الأنعام: ٣٠.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ١٢٨).

(٤) «التيسير» (٢ / ١٦).

﴿الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [1].

قال السعدي[2]: «لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجعون، ويرجع بعضهم إلى بعض القول؛ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

و ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾؛ أي: بقوتنا وقهرنا إياكم، ﴿بَلْ كُنْتُم مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً﴾؛ أي: بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تُحَسِّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل؛ فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا؛ فلم تفد تلك

---

(١) سبأ: ٣١ - ٣٣.

(٢) «التيسير» (٤ / ١٩٢).

المراجعة بينهم شيئاً إلا براءة بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾؛ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم؛ لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له؛ فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب».

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾، خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة، قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾؛ أي: بان لنا الأمر ورأيناه عياناً؛ فصار عين يقين، ﴿فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾؛ أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به؛ أي: لرأيت أمراً فظيعاً وحالاً مزعجة؛ أقواماً خاسرين، وسؤالاً غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال».

وقال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: «أي: تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى

---

(1) السجدة: ١٢.

(2) «التيسير» (٤ / ١٢٤).

(3) الحاقة: ١٨.

(4) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤١٤).

عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال: ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وقال ابن أبي الدنيا(١): حدثنا إسحاق بن إسماعيل، ثنا سفيان بن عيينة عن جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج؛ قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً؛ أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾».

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ؛ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ؛ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال:

«لَا تَزُولُ قَدَمُ ابنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(٣).

فتفكر يا عبد الله! في موقفك بين يدي الواحد القهار، وتدبر الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي تصف ذلك الموقف المهول، وكرر تدبرها على قلبك حتى يورثك من الرهبة ما يحجزك عن المحارم، ويقوي همتك لفعل

---

(١) «محاسبة النفس» (رقم ٢).

(٢) أخرجه البخاري في عشرة مواضع أولها (٣ / ٢٨١ ـ فتح)، ومسلم (١٠١٦)، وغيرهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) وغيره، وأودعه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (برقم ٩٤٦).

الأوامر.

واعلم أن من أعظم الأمور المعينة على التجهز لذلك الموقف الشديد العصيب؛ تكرار الفكر فيه وفيما قبله وبعده من الأهوال والزلازل والأخطار.

فكما تطول على العبد ساعات الغفلة، وتتكرر عليه أنواع المعصية، وتتنوع في جذبه الشهوات، وتختلف في إضعافه الشبهات؛ فلا بد أن يكرر على قلبه ـ وبكثرة ـ ما يعين على سلوك طريق الآخرة؛ من ذكرٍ لله تعالى، وتلاوة لكتابه على وجه التعقل والتفهم، وفكر في الموت وما بعده، وإلا؛ هلك مع الهالكين، وخسر مع الخاسرين.

*****

# فصل

## في أول ما يحاسب عليه العبد

عن حُرَيْث بن قَبيصَة؛ قال: قدمت المدينة؛ فقلت: اللهم يسر لي جليساً صالحاً، قال: فجلست إلى أبي هريرة، فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليساً صالحاً؛ فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به؛ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ أوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ؛ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وإنْ فَسَدَتْ؛ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فريضَتِهِ شَيْءٌ؛ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذٰلِكَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ أوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ أُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وأُرْوِكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ؟!»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٤١٣)، والنسائي (١ / ٢٣٢) وغيرهما، وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (رقم ٢٠١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وابن حبان (٢٥٨٥ ـ موارد)، والحاكم (٤ / ١٣٨)، وهٰذا لفظه، وقال: «صحيح»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٣٩٥ و١٢ / ١٨٧ ـ فتح)، ومسلم (١٦٧٨)، وغيرهما.

قال النووي [1]: «فيه تغليظ أمر الدماء، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهٰذا لعظم أمرها وكثير خطرها، وليس هٰذا الحديث مخالفاً للحديث المشهور في «السنن»: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ صَلَاتُهُ»؛ لأن هٰذا الحديث الثاني فيما بين العبد وبين الله تعالى، وأما حديث الباب؛ فهو فيما بين العباد، والله أعلم بالصواب».

قلت: وحديث: «أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ؟» في أول ما يحاسب عليه العبد من النعيم؛ كما هو لفظ الترمذي.

*****

(١) «شرح مسلم» (١١ / ١٦٧).

# فصل

## في حسرتهم ودعائهم على أنفسهم بالثبور
## عند أخذ كتبهم بالشمائل وراء الظهور، وعند المحاسبة ونصب الموازين

قال الله تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير، ﴿فَتَرى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾؛ أي: يَا حسرتنا وويلنا على ما فرّط في أعمارنا، ﴿مَا لِهٰذا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؛ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر؛ ﴿إِلَّا أَحْصَاها﴾؛ أي: ضبطها وحفظها».

وقال السعدي[3]: «تحضر كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار؛ فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليها أعمالهم، مُحصىً عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنا مَا لِهٰذا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة؛

---

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٨٧).

(٣) «التيسير» (٣ / ١٦٣ - ١٦٤).

لم يُنْسَ منها عمـلٌ سرٌ ولا علانيةٍ، ولا ليلٍ ولا نهارٍ، ﴿ووَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضِراً﴾، لا يقدرون على إنكاره، ﴿ولاَ يَظْلِمُ ربُّكَ أَحداً﴾».

وقال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «﴿يَـوْمَ تَجِـدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ الآية، يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمئذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ﴾[3]، فما رأى من أعماله حسناً؛ سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح؛ ساءه وغصه، وودَّ لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد؛ كما يقول لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، وهو الذي جرَّأه على فعل السوء ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ﴾[4]، ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾؛ أي: يخوفكم عقابه».

قال الطبري[5]: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾، يقول جل ثناؤه: ويحذركم الله نفسه أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم؛ فتوافونه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾، وهو عليكم ساخط؛ فينالكم من أليم عقابه ما لا

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١ / ٣٥٧).

(٣) القيامة: ١٣.

(٤) الزخرف: ٣٨.

(٥) «جامع البيان» (٣ / ١٥٥).

قبل لكم به، ثم أخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده رحيم بهم، ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه».

وقال السعدي[1]: «إذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه ويلاقي سعيه؛ أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة».

وقال الله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[3].

قال ابن كثير[4]: «﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُم عَذاباً قَرِيباً﴾؛ يعني: يوم القيامة؛ لتأكد وقوعه صار قريباً؛ لأن كل ما هو آتٍ آت، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعرض عليه جميع أعماله؛ خيرها وشرها، قديمها وحديثها؛ كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾، وكقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

---

(١) «التيسير» (١ / ٢٣٩).

(٢) الزلزلة: ٧ و٨.

(٣) النبأ: ٤٠.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٦٦).

﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾؛ أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق، ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة.

وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء[1] من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها؛ قال لها: كوني تراباً؛ فتصير تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾[2]؛ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب».

وقال الله جل ثناؤه:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾[3].

قال السعدي[4]: «هؤلاء هم أهل الشقاء، يُعطون كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة بشمالهم؛ تمييزاً لهم، وخزياً وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾؛ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية، ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾؛ أي: ليتني كنت نسياً منسياً ولم أبعث

---

(١) (الجماء): هي التي لا قرن لها.

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ؛ قال:

«يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الجِنِّ والإِنْسِ والبَهَائِمِ، وإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الجَمَّاءَ مِنَ القَرْنَاءِ حَتَّى إِذا لَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ واحِدَةٍ لأُخْرَى، قالَ اللهُ: كُونُوا تُراباً، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقُولُ الكَافِرُ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾».

أخرجه ابن جرير في «تفسيره»، وهو في «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٩٦٦).

(٣) الحاقة: ٢٥ - ٢٩.

(٤) «التيسير» (٥ / ٢٩٩).

وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها، ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يُقدِّمْ منه لآخرته، ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً؛ فيقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾؛ أي: ما نفعني في الدنيا؛ لأني لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه، ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾؛ أي: ذهب واضمحل؛ فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العُدَدُ ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح» اهـ.

فتفكر يا أخي! في هذا الموقف المهول؛ موقفٍ بين يدي الواحد القهار، ربِّ العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية.

وتخيل نفسك وأنت تنتظر كتابك، وقد اشتد قلقك، ووجف قلبك، وارتعدت جوارحك، ولا تدري أين يقع منك: بشمالك؛ فتنادي عندها ـ وقد حلَّ عليك سخط الله وعقابه ـ: واثبوراه[1]، ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾.

أم بيمينك؛ فتطير لذلك فرحاً وسروراً، وتنادي في أهل الموقف ـ وقد تيقنت برضا الله والسعادة الأبدية ـ: ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾.

وتصور الخلائق من حولك؛ ذا آخذ كتابه بيمينه، قد أشرق وجهه، واستطار فرحه، وأيقن بجنة الخلد، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وتمنى أهل الموقف أن ينالوا من الله عز وجل ما نال، وذا آخذ كتابه بشماله قد اسودّ وجهه، ووجل فؤاده، وحضر همه وحزنه، وأيقن بالعذاب والشقاء، واستعاذ أهل الموقف من حاله ومآله.

فلو ترى يا أخي! إذ ترى صحفاً متطايرة، وقلوباً واجفة، وأبصاراً خاشعة؛

---

(١) أي: واهلاكاه واخساراه واويلاه.

لرأيت أمراً عظيماً، وهولاً فظيعاً، وخطراً جسيماً.

فلْيعظمْ منك الحذر من هٰذا المقام، والذكر له، والفكر فيما يصيبك فيه من الخوف والرعب والفزع، والنظر لأي الحالين قَدَّمْتَ، ولأي الأمرين أَعْدَدْتَ.

فتفكر في هٰذا يا أخي! قبل فوات الأوان، وذهاب فرصة الإمكان، تفكر فيه بقلب حاضر غير غائب، وعقل فارغ غير لاهٍ، ومخافة على نفسك من عقاب الله تعالى، وشفقة على بدنك من أليم عذابه.

وبادر بملء كتاب أعمالك بالحسنات، وسارع إلى محو ما فيه من السيئات، ولْيكن هٰذا دأبك ليلَ نهار، وكدحك بالعشي والإبكار.

وقد قال الله جل ثناؤه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾[1].

وفي «الصحيحين»[2] عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ القِيامَةِ؛ عُذِّبَ»، فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾؛ فقال:

«لَيْسَ ذاكِ الحِسَابُ، إِنَّما ذاكِ العَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ يَوْمَ القِيامَةِ؛

---

(١) الانشقاق: ٦ - ١٥.

(٢) «البخاري» (١ / ١٩٧ و٨ / ٦٩٧ و١١ / ٤٠٠ - فتح)، و«مسلم» (٢٨٧٦).

عُذِّبَ».

وفيهما[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ؛ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وأَمَّا الكَافِرُ والمُنَافِقُونَ؛ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِم أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2]».

(وفي رواية مسلم): «وأَمَّا الكُفَّارُ والمُنَافِقُونَ؛ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ».

وفي «سنن الترمذي»[3] عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما؛ قال رسول الله ﷺ:

«يُؤتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصَراً وَمَالاً وَوَلَداً، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ[4]؛ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ

---

(١) «البخاري» (٥/٩٦ و٨/٣٥٣ و١٠/٤٨٦ و١٣/٤٧٥ - فتح)، و«مسلم» (٢٧٦٨).

(٢) هود: ١٨.

(٣) (رقم ٢٤٢٨).

(٤) قال النووي في «شرح مسلم» (١٨ / ١٠٤): «أي: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها، يقال: ربعتهم؛ أي: أخذت ربع أموالهم، ومعناه: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً».

قال: «وقال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته: عندي أن معناه تركتك مستريحاً لا تحتاج إلى مشقة وتعب، من قولهم: اربع على نفسك؛ أي: ارفق بها».

مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هٰذا؟ قالَ: فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أَنْساكَ كَما نَسِيتَنِي».

وهٰذا الحديث في «صحيح مسلم» أيضاً[1] لكن عن أبي هريرة وحده، قال: قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هَلْ تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحابَةٍ؟»، قالوا: لا. قال: «فَهَلْ تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ فِي سَحابَةٍ؟» قالوا: لا، قال:

«فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لا تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُم إِلَّا كَما تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِما، قال: فَيَلْقَى العَبْدَ؛ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ[2]! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْساكَ كَما نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثّانِيَ؛ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْساكَ كَما نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثّالِثَ؛ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذٰلِكَ، فَيَقُولُ: يا رَبِّ! آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتابِكَ وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ ما اسْتَطاعَ؛ فَيَقُولُ: هٰهُنا إِذاً، قالَ: ثُمَّ يُقالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شاهِدَنا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظامِهِ: انْطِقِي؛ فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذٰلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذٰلِكَ المُنافِقُ، وَذٰلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ».

والختم على الأفواه ونطق الجوارح المذكور في هٰذا الحديث جاء في قول الله تعالى:

---

(١) (رقم ٢٩٦٨).

(٢) معناه: يا فلان.

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

وقوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وقوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ (٣).

فانظر يا عبد الله! كيف شهدت عليك جوارحك التي ضيعت عمرك في السعي لراحتها في الدنيا، وبذلت جهدك في الدفاع عنها والمحافظة عليها، وتحصيل شهوتها ولو على حساب الآخرة؛ بارتكاب المنهيات والوقوع في المحرمات.

ثم واحسرتاه عليك؛ قد تخلت عنك وشهدت عليك.

فيا الله ما أشد حسرتك وما أعظم مصيبتك!

فيا من قد علم هٰذا وتنبه له! اجعل ندمك في الدنيا قبل الآخرة، اجعل

---

(١) يس: ٦٥.

(٢) النور: ٢٤.

(٣) فصلت: ٢٠ - ٢٤.

الندم على معصية الله تعالى والغفلة عنه قبل أن تندم يوم لا ينفع الندم.

وقل لنفسك الأمَّارة تبّاً لك، وللجوارح التي تريد لذتها بالمعصية بعداً لَكُنَّ وسحقاً.

قل ذلك وأنت حر ينفعك قولك؛ قبل أن تقوله في الآخرة؛ فلا تنال منه شيئاً إلا الحسرة والندم؛ كما جاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك؛ فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال:

«مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِداً مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُوداً، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ؛ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وَسُحْقاً؛ فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ[(١)]»[(٢)].

*****

(١) أي: أجادل وأخاصم وأدافع. «نهاية».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٩) وغيره.

# فصل

## في خسران أهل الندامة أنفسهم إذا خفت موازينهم

قال الله تعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جور فيه ولا ظلم بوجه، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ بأنْ رجحت كفة حسناته على سيئاته، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الأبدية.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ بأن رجحت سيئاته وصار الحكم لها، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم، ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك».

*****

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[3].

قال الطبري[4]: «﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ يقول: ومن خفت موازين حسناته؛ فرجحت بها موازين سيآته؛ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم﴾،

(١) الأعراف: ٨ و٩.

(٢) «التيسير» (٢ / ٩٧).

(٣) المؤمنون: ١٠٣ و١٠٤.

(٤) «جامع البيان» (١٨ / ٤٣).

يقول: غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، يقول: هم في نار جهنم.

وقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، يقول: تسفع وجوههم النار، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، و(الكُلُوح): أن تتقلص الشفتان عن الأسنان حتى تبدو الأسنان؛ فتأويل الكلام: يسفع وجوههم لهب النار فتحرقها، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان من إحراق النار وجوههم».

وقال الشنقيطي[1]: «﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تحرقها إحراقاً شديداً.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، (الكالح): هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه، والنار ـ والعياذ بالله ـ تحرق شفاههم حتى تتقلص عن أسنانهم؛ كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر، ومنه قول الأعشى:

وَلَـهُ الـمُـقْـدَمُ لاَ مِثْـلَ لَهُ ... سَاعَـةَ الشِّـدْقِ عَنِ النَّـابِ كَلَحْ

وعن ابن عباس: ﴿كَالِحُونَ﴾: عابسون».

وقـال السعـدي[2]: «كـل خسارة غير هذه الخسارة؛ فإنها بالنسبة إليها سهلة، ولكن هٰذه خسارة صعبة؛ لا يُجبر مصابُها، ولا يُستدرك فائتُها، خسارة أبـدية وشقـاوة سرمـدية، قد خسر نفسه الشريفة التي يتمكن بها من السعادة الأبدية، فَفوَّتها هٰذا النعيم المقيم في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهٰذا الوعيد إنما هو كما ذكرنا لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذٰلك إلا كافراً، فعلى هٰذا؛

---

(١) انظر: «أضواء البيان» (٥ / ٨٢٤).

(٢) «التيسير» (٣ / ٣٧٦).

لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالهم وتحصى؛ فيوقفون عليها ويقررون بها ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته فرجحت على حسناته؛ فإنه ـ وإن دخل النار ـ لا يخلد فيها؛ كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين؛ فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿وهُم فِيها كَالِحُونَ﴾، قد عبست وجوههم وقلصت شفاههم من شدة ما هم فيه وعظيم ما يلقونه».

وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾؛ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته؛ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾؛ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذابَها كَانَ غَراماً﴾[3]، وقيل: إن معنى ذلك: فأم دماغه هاوية في النار؛ أي: يُلقى في النار على رأسه.

﴿وما أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾، وهٰذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله: ﴿نارٌ حَامِيةٌ﴾؛ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً، نستجير بالله منها» اهـ.

---

(١) القارعة: ٨ ـ ١١.

(٢) «التيسير» (٥ / ٤٥٠).

(٣) الفرقان: ٦٥.

واختار ابن قتيبة القول الأول؛ فإنه قال في «تأويل المشكل»[1]: «﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾؛ لمَّا كانت الأم كافِلَةَ الولد وغاذِيَتَهُ، ومأْوَاهُ ومُرَبِّيَتَهُ، وكانت النار للكافر كذٰلك؛ جعلها أُمّه» اهـ.

ويؤيد هٰذا القول ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال:

«إِذَا حُضِرَ المُؤْمِنُ؛ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِجَرِيدَةٍ بَيْضَاءَ. . .» الحديث، وفيه: «فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنيا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُم؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ»[2].

فتدبر يا أخي! شأن الحساب والموازين، وحاسب نفسك في هٰذه الدنيا قبل أن تحاسب، وزن أعمالك قبل أن توزن؛ فالفرصة في يدك الآن؛ لتنظر في أعمالك وما قدمته للقاء الله تعالى.

فقد أفلح ـ والله ـ من حاسب نفسه في هٰذه المدة القصيرة، وراجع ما قد وضع في كتاب أعماله، ونظر فيما قدمه ليوم فاقته.

وتفكر يا أخي! بأي بدنٍ تقف بين يدي الله تعالى، وقد ملأت كتابك بما تستحيي أن يراك عليه بعض إخوانك؟!

ثم تفكر كيف تنقلب من بين يدي مولاك جل وعلا؛ أمتناول كتابك بشمالك أم بيمناك؟

وقد حذرك الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ بما ذكر من أمر الموازين والحساب لتحذر؛ فتحاسب نفسك وتتهيأ للعرض عليه سبحانه، وما

---

(١) ص: ١٠٤.

(٢) أخرجه النسائي (٤ / ٨ ـ ٩)، وابن حبان (٧٣٣ ـ موارد)، والحاكم (١ / ٣٥٢ ـ ٣٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٢٩٤).

ذلك إلا رحمة منه جل وعلا، ورأفة بك أن يحل عليك سخطه أو تنالك عقوبته؛ فتكون من أصحاب النار.

فلا تؤجل يا أخي! محاسبة نفسك، وبادر بها الأجل؛ فإنه قد يبغتك اليوم أو غداً؛ فتقدم على الله تعالى بالأوزار لم تتطهر منها بعد.

ولا تكن من أهل الغفلة الذين لم يقدروا الله حق قدره، ولم يرعوا أمره حق رعايته، وشغلتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله تعالى، وصرفوا أعمارهم النفيسة في نيل أهوائهم الخسيسة، وإذا سمعوا أعرضوا، وإذا زُجروا لم يتعظوا، ولا يدرون أن أجلهم قد يكون قريباً؛ فمتى إذاً يتذكرون ويتوبون؟!

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقال الله تعالى:

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ... ﴾(٢).

وقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) الأنبياء: ١ ـ ٣.

(٣) الحشر: ١٨ و١٩.

قال السعدي[1]: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه؛ من لزوم تقواه سراً وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها؛ أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهٰذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً؛ تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله؛ بذل جهده واستعان بربه في تتميمه وتكميله وإتقانه، ويقايس بين مِنن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره؛ فإن ذٰلك يوجب له الحياء لا محالة.

والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هٰذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها؛ فلم ينجحوا، ولم يَحْصُلُوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعهم وفوائدها؛ فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغَبِنوا غَبْناً لا يمكن تداركه، ولا يُجبر كسره».

وفي «المدهش»[2]: «يا هٰذا! عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها، حدثها بما بين يدها وأخبرها، أشر عليها بمصلحتها ودبرها.

---

(١) «التيسير» (٥ / ٢١٢ - ٢١٣).

(٢) (ص ٣٧٩).

اسْتَعِدِّي لِلْمَـوْتِ يَا نَفْسُ وَاسْعِي لِنَـجَـاةٍ فَالْـحَـازِمُ الْـمُسْتَعِـدُّ
قَدْ تَبَيَّنْـتِ أَنَّـهُ لَيْسَ لِلْحَيْـ ـيِ خُلُودٌ وَلاَ مِنَ الْـمَوْتِ بُدُّ
أَيُّ مُلْكٍ فِي الأَرْضِ أَوْ أَيُّ حَظٍّ لامْـرِىءٍ حَظُّهُ مِنَ الأَرْضِ لَحْـدُ
كَيْفَ يَهْـوَى امْـرُؤٌ لَذَاذَةَ أَيَّامٍ عَلَيْهِ الأَنْـفَـاسُ فِيهـا تُعَـدُّ»

وفي «مختصر التبصرة»(١) : «أيها الغافل عما بين يديه، لا يذكر الموت ولا يلتفت إليه، شغله عن العواقب ما لديه، وألهاه ماله عما عليه، بادر أيام شبابك قبل فراق أحبابك، واغتنم أحيان حياتك قبل موافاة وفاتك؛ فالعمر بالسنين يذهب، والأجل بمرور الأوقات يُنهب؛ فالبِدار البِدار قبل الفوات، والحِذار الحِذار من هجوم الممات».

ولابن القيم(٢) :

فَيَا ساهِياً فِي غَمْرَةِ الجَهْلِ وَالهَوَى صَرِيعَ الأَمَـانِي عَنْ قَرِيبٍ سَتَنْـدَمُ
أَفِقْ قَدْ دَنَـا الـوَقْتُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ سِوَى جَنَّـةٍ أَوْ حَرِّ نَارٍ تَضَـرَّمُ
وَخُـذْ مِنْ تُقَى الـرَّحْمٰنِ أَعْـظَمَ جُنَّةٍ لِيَوْمٍ بِهِ تَبْـدُو عِيَانـاً جَهَـنَّـمُ
وَيُنْصَبُ ذَاكَ الجِسْرُ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهـا فَهَـاوٍ وَمَخْـدُوشٌ وَنَـاجٍ مُسَلَّمُ
وَيَأْخُـذُ لِلْمَـظْلُومِ رَبُّـكَ حَقَّـهُ فَيَا بُؤسَ عَبْـدٍ لِلْخَـلائِـقِ يَظْلِمُ
فَلا مُجْـرِمٌ يَخْـشَـى ظُلامَـةَ ذَرَّةٍ وَلاَ مُحْسِـنٌ مِنْ أَجْـرِهِ ذَاكَ يُهْضَمُ
وَتَشْهَـدُ أَعْضَـاءُ المُسِيءِ بِمَـا جَنَى كَذاكَ عَلَى فِيهِ الـمُـهَيْمِنُ يَخْـتِمُ
فَيا لَيْتَ شِعْـرِي كَيْفَ حَالُـكَ عِنْدَمَا تَطَايَرُ كُتْـبُ الـعَـالَـمِينَ وَتُـقْسَـمُ
أَتَـأْخُـذُ بِاليُمْنَى كِتَـابَـكَ أَمْ تَكُنْ بالاخْـرَى وَرَاءَ الـظَّهْـرِ مِنْـكَ تُسَلَّمُ
وَتَـقْـرَأُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ عَمِـلْتَـهُ فَيُشْـرِقُ مِنْـكَ الـوَجْـهُ أَوْ هُوَ يُظْلِمُ

---

(١) (٢ / ٢٦٣).

(٢) «شرح القصيدة الميمية» (ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥).

تقُولُ كِتَابِي فَاقْرَؤُوهُ فَإِنَّهُ    يُبَشِّرُ بِالفَوْزِ العَظِيمِ وَيُعْلِمُ
فَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى فَإِنَّكَ قَائِلُ    أَلَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَهُ فَهْوَ مَغْرَمُ
فَبَادِرْ إِذَنْ مَا دَامَ فِي العُمْرِ فُسْحَةٌ    وَعَدْلُكَ مَقْبُولٌ وَصَرْفُكَ قَيِّمُ
وَجِدَّ وَسَارِعْ وَاغْتَنِمْ زَمَنَ الصِّبَا    فَفِي زَمَنِ الإِمْكَانِ تَسْعَى وَتَغْنَمُ
وَسِرْ مُسْرِعاً فَالسَّيْلُ خَلْفَكَ مُسْرِعٌ    وَهَيْهَاتَ مَا مِنْهُ مَفَرٌّ وَمَهْزَمُ
فَهُنَّ المَنَايَا أَيَّ وَادٍ نَزَلْتَهُ    عَلَيْهَا القُدُومُ أَوْ عَلَيْكَ سَتَقْدَمُ

*****

# فصل

## في إفلاسهم إذا اجتمعت عليهم الخصوم

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«أَتَـدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هٰذَا، وَقَذَفَ هٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هٰذَا، وَضَرَبَ هٰذَا؛ فَيُعْطَى هٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُم فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

وعنه رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ؛ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ؛ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»(٢).

وعن الزبير بن العوَّام رضي الله عنه؛ قال: لما نزلت هٰذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُم تَخْتَصِمُونَ﴾(٣)، قلت: أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال:

«نَعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكُم حَتَّى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٥ / ١٠١ و١١ / ٣٩٥ ـ فتح) وغيره.

(٣) الزمر: ٣٠ و٣١.

قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديد[1].

قال ابن كثير في «تفسيره»[2]: «معنى هٰذه الآية: أنكم ستنقلون من هٰذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل؛ فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم؛ فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هٰذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة؛ فإنها شاملة لكل متنازِعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة» اهـ.

وقال الغزالي: «ما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشد حسراتك في ذلك اليوم، إذا وقفت بين يدي الله تعالى وأنت مفلس فقير عاجز مهين، لا تقدر على أن تَرُدَّ حقاً أو تظهر عذراً! فعند ذلك؛ تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك، وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم.

فانظر إلى مصيبتك في مثل هٰذا اليوم؛ إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٦) وقال: «حسن صحيح»، وعنده: قال الزبير: يا رسول الله! أتكرَّر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟

والحديث أخرجه الحاكم (٢ / ٤٣٥ و٤ / ٥٧٢)، وأحمد (١ / ١٦٧) كلاهما بلفظه، وأخرجه غيرهما.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: «حسن الإسناد».

(٢) (٤ / ٥٢).

الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة؛ ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل؛ لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك؛ فكيف ببقية السيئات؛ من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟! وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجمّاء من القرناء؟!» اهـ.

ولله در القائل:

لا تَظْلِمَنَّ إذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً ... فالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بالنَّدَمِ
نَامَتْ عُيُونُكَ والمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

ولآخر:

مَرْتَعُ ظُلْمِ الوَرَى وَخِيمٌ ... يَا صَاحِبَ اللُّبِّ والحَجَارة
لَا تَظْلِمِ النَّاسَ واخْشَ ناراً ... وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارة

ولغيره:

إذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ العِبَا ... دِ فَرَبُّ العِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإيَّاكَ والظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْـ ... ـتَ فَظُلْمُ العِبَادِ شَدِيدُ الوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الوَرَى ... لِتُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُم بَعْدَهُم ... شُهُودٌ عَلَيْهِم وَلَا تُتَّهَمْ
وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِم أَضَرَّ ... مِنَ الظُّلْمِ وَهْوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ
فَكَمْ تَرَكُوا مِنْ جِنَانٍ وَمِنْ ... قُصُورٍ وأُخْرَى عَلَيْهِم أَطَمّْ[1]
صُلُوا بالجَحِيمِ وَفَاتَ النَّعِيـ ... ـمُ وَكَانَ الَّذِي نَالَهُم كالحُلُمْ

---

(١) (أطم): أشد وأفظع.

# فصل

## في أن المجاهد يأخذ ما شاء من حسنات من خانه في أهله

عن بريدة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِم، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِم؛ إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟[1]»[2].

* * * * *

(١) (فما ظنكم) معناه: ما تظنون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار منها في ذلك المقام، أي: لا يُبقي منها شيئاً إن أمكنه. «نووي».

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٧)، وأبو داود (٢٤٩٦) وغيرهما، وفي لفظ أبي داود:

«... إِلَّا نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقِيلَ لَهُ: هٰذا قَدْ خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ؛ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ».

# فصل

## في حشر أهل الندامة
## على وجوههم عمياً وصمّاً وبكماً

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[1].

وعن قتادة؛ قال: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يُحشرُ الكافر على وَجْهِهِ؟ قال:

«أَلَيْسَ الَّـذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِراً عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟»، قال قتادة: بلى وعزة ربنا[2].

وقال الله تعالى:

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾[3].

قال ابن كثير[4]: «قوله: ﴿عُمياً﴾؛ أي: لا يبصرون، ﴿وبُكماً﴾؛ يعني: لا ينطقون، ﴿وصُمّاً﴾؛ لا يسمعون، وهٰذا يكون في حال دون حال؛ جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصمّاً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه.

---

(١) الفرقان: ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري (٨ / ٤٩٢ و١١ / ٣٧٧ - فتح)، ومسلم (٢٨٠٦)، وغيرهما.

(٣) الإسراء: ٩٧.

(٤) انظر: «تفسيره» (٣ / ٦٥).

﴿مَأْوَاهُمْ﴾؛ أي: منقلبهم ومصيرهم، ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ[1] زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أي: لهباً ووهجاً وجمراً؛ كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾».

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[2].

قال ابن القيم[3]: «أي: من أعرض عن كتابي، ولم يتله، ولم يتدبره، ولم يعمل به، ولا فهمه؛ فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مُضَيَّقة عليه، منكدة معذباً فيها.

و(الضنك): الضيق والشدة والبلاء، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هٰذه المعيشة بعذاب البرزخ، والصحيح أنها تتناول معيشته في الدنيا وحاله في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين؛ وهو شدة وجهد وضيق، وفي الآخرة يُنسى في العذاب وهٰذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب».

وقال السعدي[4]: «﴿وَنَحْشُرُهُ﴾؛ أي: هٰذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح[5]؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ

---

(١) أي: سكن لهبها.

(٢) طه: ١٢٤ - ١٢٦.

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٥٩).

(٤) «التيسير» (٣ / ٢٥٨).

(٥) وسياق الآية لا يدل إلا عليه، انظر: «مفتاح دار السعادة» (١ / ٤٥).

القِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً﴾.

﴿قَالَ﴾ على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هٰذه الحال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ﴾ في دار الدنيا ﴿بَصِيراً﴾؛ فما الذي صيرني إلى هٰذه الحالة البشعة، ﴿قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بإعراضك عنها، ﴿وكَذٰلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى﴾؛ أي: تترك في العذاب، فأجيب بأن هٰذا هو عين عملك والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه؛ أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى أصم أبكم، وأعرض عنك ونسيك في العذاب[1].

*****

(١) أي: تركك في العذاب.

# فصل

## في تخلي شركاء أهل الندامة عنهم

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[2].

قال ابن جرير[3]: «قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِم أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ يَقُولُ تعالى ذكره: ويوم ينادي اللهُ هٰؤلاء المشركين به في الدنيا الأوثانَ والأصنام: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم إياي؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾، يقول: قالوا: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ يقول: قال هٰؤلاء المشركون لربهم يومئذ: ما منا من شهيد يشهد أن لك شريكاً.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، وضل عن هٰؤلاء المشركين يوم القيامة آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، فأُخذ بها طريق غير طريقهم؛ فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذي حل بهم.

وقوله: ﴿وَظَنُّوا ما لَهُم مِنْ مَحِيصٍ﴾، يقول: وأيقنوا حينئذٍ ما لهم من

---

(١) النحل: ٨٦ و٨٧.

(٢) فصلت: ٤٧ و٤٨.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١ / ١٢٢ - ١٢٣ - العلمية).

ملجأ؛ أي: ليس لهم ملجأ يلجؤون إليه من عذاب الله».

وقال الله تعالى:

﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «﴿وقِيلَ ادعُوا شُركَاءَكُم﴾؛ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه؛ كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبوا لَهُم ورأَوُا العَـذَابَ﴾؛ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُم كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: فَوَدُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا».

* * * * *

(١) القصص: ٦٤.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٣٩٧).

# فصل

## في أنهم ليس لهم يوم القيامة حميم ولا شفيع

قال الله تعالى عن أهل الندامة:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿فَمَا لَنَا﴾ حينئذ ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾ يشفعون لنا؛ لينقذونا من عذاب الله، ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريب مُصافٍ ينفعنا بأدنى نفع؛ كما جرت العادة بذلك في الدنيا؛ فأيسوا من كل خير وأُبسلوا بما كسبوا، وتَمَنَّوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً؛ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها، ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لنسلم من العقاب ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غُلِّقت منهم الرهون».

وقال ابن كثير[3]: «قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع».

وقال سبحانه: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾[5].

---

(١) الشعراء: ٩٦ - ١٠٢.

(٢) «التيسير» (٣ / ٤٧٢ - ٤٧٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٣٤٠).

(٤) غافر: ١٨.

(٥) الحاقة: ٣٥.

# فصل

## في عجز أهل الندامة عن فداء أنفسهم من عذاب الله تعالى

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(1).

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(2).

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(3)

قال السعدي(4): «﴿وَ﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله؛ ﴿لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة.

---

(1) آل عمران: ٩١.

(2) المائدة: ٣٦ و٣٧.

(3) يونس: ٥٤.

(4) «التيسير» (٢ / ٣٢٥).

﴿وأَسَرُّوا﴾؛ أي: الذين ظلموا ﴿النَّدامَةَ لَمَّا رأَوُا العَذَابَ﴾ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص، ﴿وقُضِيَ بَيْنَهُم بالقِسْطِ﴾؛ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جَور فيه بوجه من الوجوه».

وقال الزمخشري[1]: «﴿وأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رأَوُا العَذَابَ﴾؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدَّة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم؛ فلم يطيقوا عنده بكاءً ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب؛ كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويُغلب حتى لا يَنْبس بكلمة، ويبقى جامداً مبهوتاً».

وقال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «﴿وبَـدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وبَدَا لَهُم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾؛ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزؤون به في الدار الدنيا».

وقال الله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ

(١) «الكشاف» (٢ / ١٩٤).

(٢) الزمر: ٤٧ و٤٨.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٥٧).

﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ (وفي رواية: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً)؛ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فيقولُ: نعم، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هذا، وأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً؛ فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»(٢).

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتذكير بالقرآن العظيم محذراً أن تقتحم النفس المعاصي والآثام، فتؤخذ يوم القيامة بجرمها في وقت ليس لها فيه من دون الله تعالى ناصر ينصرها؛ فيصرف عنها العقاب، أو شفيع يشفع لها عند الله تعالى؛ فيخفف عنها يوماً من العذاب، بل لو افتدت بكل أنواع الفداء ولو بملء الأرض ذهباً لا يقبل منها أبداً؛ لأنها أُخذت بالذنوب وفات الأوان، فلم تُسْعِفها الأنصار ولا الشفعاء، ولم ينفعها الندم ولا البكاء، ولم يُقْبَلْ منها عذرٌ ولا فداء؛ كما قال الله عز وجل:

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾(٣).

فتخيل نفسك أيها العاصي! وقد أحاطت بك خطيئتك، واستوجبت عذاب الله تعالى الذي لا يحتمله أحد، ثم كانت لك الدنيا بذهبها وفضتها ولؤلؤها، ونسائها وولدانها، ومآكلها ومشاربها، وحيواناتها وأشجارها وزروعها،

---

(١) الرعد: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٣٦٣ و١١ / ٤٠٠ و٤١٦ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٠٥)، وغيرهما.

(٣) الأنعام: ٧٠.

وجميع مراكبها، وأوانيها وأثاثها، ثم بذلت ذلك كله ومثله معه لتفتدي به من العذاب وتنجوَ منه؛ ما قبل منك ولا أغنى عنك من الله شيئاً:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[1] ﴾[2].

وودت لو تفتدي من هٰذا العذاب العظيم بأبنائك الذين تحبهم، وزوجك التي تسكن إليها، وأخيك الذي كان ينصرك في الدنيا.

وودِدت لو تفتدي منه بكل من تحب من قريب أو صديق، بل وبكل من في الأرض جميعاً.

ولكن؛ هل ينفعك هٰؤلاء جميعاً؟ وهل يغنون عنك من عذاب الله شيئاً؟!

كلا، لن ينفعوك ولن ينصروك؛ كما قال الله تعالى:

﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[4].

---

(١) قال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (٣ / ٤٧١): «(القلب السليم) معناه: الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعاً لما جاء عن الله».

(٢) الشعراء: ٨٨ و٨٩.

(٣) المعارج: ١١ ـ ١٨.

(٤) البقرة: ٤٨.

فيا من أيقن بهـذا وآمن به! سارع إلى فداء نفسك من النار قبل فوات الأوان، وقدم ليوم فاقتك طاعة مولاك عز وجل؛ لتأمن العذاب يوم القيامة مع الآمنين.

فيا فوز من افتدى منه الآن حيث ينفع الفداء، وندم على ما فرط في جنب الله تعالى، وتاب وأناب إليه قبل حلول الأجل وانقطاع العمل.

ويا ويح من أخر التوبة، وتعلل بلعل وسوف، حتى فاجأه الموت؛ فذهب عمره في جمع السيئات، وفاته رضا رب الأرض والسماوات، وحرم الفوز بنعيم الجنات، بل واستوجب سخط الله تعالى وعقابه، عياذاً بك اللهم من ذلك.

وفي «الفوائد»[1]: «اشتر نفسك اليوم؛ فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[2] ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾[3]».

*****

---

(١) ص: ٦٤.

(٢) التغابن: ٩.

(٣) الفرقان: ٢٧.

# فصل

## في حالهم عند رؤية جهنم إياهم وعرضها عليهم

قال الله تعالى:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿وأعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾؛ أي: ناراً عظيمة قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها واشتد زفيرها، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً﴾ عليهم ﴿وزَفِيراً﴾، تقلق منهم الأفئدة وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهبها لزيادة كفرهم وشرهم».

وقال الشنقيطي[3]: «والأظهر أن معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً﴾؛ أي: سمعوا غليانها من شدة غيظها، ولما كان سبب الغليان التغيظ؛ أطلقه عليه، وذلك أسلوب عربي معروف».

وقال: «ورؤيتها إياهم من مكان بعيد تدل على حدة بصرها؛ كما لا يخفى» اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ،

---

(١) الفرقان: ١١ و١٢.

(٢) «التيسير» (٣ / ٤٣٠).

(٣) «أضواء البيان» (٦ / ٢٨٨).

ولِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ، وبالمُصَوِّرِينَ»[1].

وقال الله تعالى:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا * ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يَعرض عليهم جهنم؛ أي: يبرزها لهم ويظهرها ليرَوا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم».

وقال السعدي[4]: «عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب وتصم الآذان، وهٰذا آثار أعمالهم وجزاء أفعالهم؛ فإنهم في الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾؛ أي: معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[5]، وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ﴾[6].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤)، وأحمد (٢ / ٣٣٦)، وصححه الألباني على شرط الشيخين في «الصحيحة» (٢ / ٤١).

(٢) الكهف: ١٠٠ و١٠١.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ١٠٦).

(٤) «التيسير» (٣ / ١٨٥).

(٥) فصلت: ٥.

(٦) البقرة: ٧.

﴿وكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾؛ أي: لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول؛ فإن المبغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير؛ فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسله؛ فاستحقوا جهنم وساءت مصيراً».

وقال سبحانه:

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ﴾؛ أي: برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الذين أوضعوا في معاصي الله، وتجرؤوا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءهم به من الحق، ﴿وقِيلَ لَهُم أَيْنَ مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بأنفسهم؛ أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم».

وقال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[3].

قال السعدي[4]: «أي: إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى التي

---

(١) الشعراء: ٩١ - ٩٣.

(٢) «التيسير» (٣ / ٤٧١).

(٣) النازعات: ٣٤ - ٣٩.

(٤) «التيسير» (٥ / ٣٦٩ - ٣٧٠).

يهون عندها كل شدة؛ فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه، و﴿يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ في الدنيا من خير وشر؛ فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب وصلة كانت له في الدنيا سوى الأعمال.

﴿وبُـرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾؛ أي: جعلت في البراز؛ ظاهرة لكل أحد، قد هيئت لأهلها، واستعدت لأخذهم منتظرة لأمر ربها.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾؛ أي: جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله، ﴿وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيا﴾ على الآخرة؛ فصار سعيه لها، ووقته مُسْتَغْرَقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل لها، ﴿فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى﴾ له؛ أي: المقر والمسكن لمن هٰذه حاله».

وقال تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ (1).

قوله تعالى: ﴿وجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّم﴾؛ أي: جيء بها مزمومة؛ كما في «صحيح مسلم» (2) وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ

(1) الفجر: ٢١ ـ ٢٦.

(2) (رقم ٢٨٤٢).

يَجُرُّونَهَا».

قال ابن جرير[1]: «قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ﴾، يقول تعالى ذكره: يومئذ يتذكر الإنسان تفريطه في الدنيا في طاعة الله وفيما يقرّب إليه من صالح الأعمال، ﴿وأنَّى لَهُ الذِّكْرَى[2]﴾؛ يقول: من أي وجه له التذكير.

وقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾؛ يقول تعالى ذكره مخبراً عن تلهُّف ابن آدم يوم القيامة، وتندُّمه على تفريطه في الصالحات من الأعمال في الدنيا، التي تورثه بقاء الأبد في نعيم لا انقطاع له: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ في الدنيا من صالح الأعمال، لحياتي هذه التي لا موت بعدها ما ينجيني من غضب الله ويوجب لي رضوانه».

*****

---

(١) «جامع البيان» (٣٠ / ١٢٠).

(٢) أي: وكيف؟!

# فصل

## في إحضار المكذبين حول جهنم جثياً

قال الله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾[1].

(الجِثِيّ): جمع الجاثي، من قولهم: جَثَا يَجْثُو جَثْواً وجُثُوّاً، وجَثَا يَجْثِي جِثِيّاً: إذا جلس على ركبتيه؛ فهم يجثون فلا يستطيعون القيام لهول ما هم فيه وشدته.

قال السعدي[2]: «أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين بربوبيته ليحشرن هٰؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم، وليجمعنهم لميقات يوم معلوم، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُم حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾؛ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال وكثرة الزلزال وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال».

* * * * *

---

(١) مريم: ٦٨.

(٢) «التيسير» (٣ / ٢١٤).

# فصل

## في عرض أهل الندامة على النار واجتماع الحسرات عليهم عند معاينتها، وطلبهم المرد إلى الدنيا لاسترضاء الرب جل وعلا

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾(١).

قال السعدي(٢): «يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون؛ فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيا﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، ﴿واسْتَمْتَعْتُم بِها﴾ كما تتمتع الأنعام السارحة؛ فهي حظكم من آخرتكم».

وقال ابن كثير(٣): «وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم؛ وبخهم وقرعهم: ﴿أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيا واسْتَمْتَعْتُم بِها﴾».

وقال أبو مجلز: ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنيا﴾(٤).

---

(١) الأحقاف: ٢٠.

(٢) «التيسير» (٥ / ١٤ - ١٥).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ١٥٩ - ١٦٠).

(٤) قال الشنقيطي: «التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار، وليست =

وقوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؛ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي؛ جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المقطعة، أجارنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله» اهـ.

وعن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف «أن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه أُتي بطعام ـ وكان صائماً ـ؛ فقال: قتل مصعب بن عمير ـ وهو خير مني ـ، كُفِّن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة ـ وهو خير مني ـ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، (أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أعطينا)، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»[1].

وقال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2].

وقال سبحانه:

---

= في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم؛ لأنه تعالى ما أباحها لهم ليُذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هٰذا هو التحقيق لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه».

ثم سرد الأدلة وحقق المسألة، فمن أحب؛ فليراجع «أضواء البيان» (٧ / ٣٩٣ ـ ٣٩٥).

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١٤٠ و١٤٢ و٧ / ٣٥٣ ـ فتح).

(٢) الأحقاف: ٣٤.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۞ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۞ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿وترى الظالمين لمّا رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيعاً صعباً شنيعاً، ويظهرون الندم العظيم والحزن على ما سلف منهم، ﴿يقولون هل إلى مردٍّ من سبيل﴾؛ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهٰذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار ﴿خاشعين من الذُّلِّ﴾؛ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ﴾؛ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً من هيبتها وخوفها».

قال ابن قتيبة[3]: «﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ﴾؛ أي: قد غضوا أبصارهم من الذل».

وقال ابن كثير[4]: «﴿خاشعين من الذُّلِّ﴾؛ أي: الذل قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ﴾، قال مجاهد: يعني ذليل؛ أي: ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذٰلك.

---

(١) الشورى: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) «التيسير» (٤ / ٤٣١).

(٣) «غريب القرآن» (ص ٣٩٤).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ١٢٠).

﴿وقَالَ الَّذينَ آمَنُوا﴾؛ أي: يقولون يوم القيامة ﴿إنَّ الخَاسِرِينَ﴾؛ أي: الخسار الأكبر، ﴿الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وأَهْلِيهِم يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؛ أي: ذُهب بهم إلى النار؛ فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفُرِّق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم؛ فخسروهم، ﴿أَلا إنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾؛ أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله تعالى: ﴿ومَا كَانَ لَهُم مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُم مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: ليس له خلاص».

وقال الله تعالى:

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

تقدم معنى قوله تعالى: ﴿وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابن جرير[3]: «معنى قوله: ﴿كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُم﴾ يقول: كما أراهم العذاب الذي ذكره في قوله: ﴿ورَأَوُا العَذَابَ﴾ الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، فكذلك

---

(١) البقرة: ١٦٥ - ١٦٧.

(٢) (ص ٩٣ - ٩٤).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٢ / ٤٤ - ٤٥).

يريهم أيضاً أعمالهم الخبيثة التي استحقوا بها العقوبة من الله، ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: ندامات، والحسرات جمع حسرة، وقيل: إن الحسرة أشد الندامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾؛ يعني تعالى ذكره بذلك: وما هؤلاء الذين وصفتهم من الكفار ـ وإن ندموا بعد معاينتهم ما عاينوا من عذاب الله، فاشتدت ندامتهم على ما سلف منهم من أعمالهم الخبيثة، وتمنوا إلى الدنيا كرةً؛ لينيبوا فيها ويتبرؤوا من مضليهم وسادتهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله فيها ـ بخارجين من النار التي أصلاهموها الله بكفرهم به في الدنيا، ولا ندمهم فيها بمنجيهم من عذاب الله حينئذ، ولكنهم فيها مخلدون».

وقال الله تعالى:

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾، قال الآلوسي (٢): «ولم يظهروا ما يدل عليها من المحاورة وغيرها ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾؛ لأنهم بهتوا لما عاينوه، فلم يقدروا على النطق، واشتغلوا عن إظهارها بشغل شاغل» اهـ.

فأدم يا أخي! الفكر في العذاب، وتخيل نفسك وقد وقفت على النار ورأيتها عِياناً، فوقع في قلبك من الخوف والرعب والهم والغم ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وتمنيت الرجوع إلى الدنيا لتسترضي ربك عز وجل؛ فلم تُعط أمنيتك، فيا الله ما أشد حسرتك عند ذلك! وما أعظم ندامتك!

فيا من أيقن باليوم الآخر وعلم أنه حق لا مِرية فيه! تيقظ قبل أن يفاجئك

---

(١) يونس: ٥٤، وسبأ: ٣٣.

(٢) «روح المعاني» (٢٢ / ١٤٦).

هولُ الموت وسكرته، ويَحِل بك ألمُ الفوت وحسرته، وتنقطع عن الدنيا في حفرة مظلمة، يمهد لك فيها من النار، ويفتح لك إليها باب من النار، في أول منزل من منازل الآخرة.

فتفكر يا أخي! في ذلك كله، وتب إلى الله تعالى، واندم على ما فرطت في جنبه عز وجل؛ فإن الندم ينفع في الدنيا، فإذا غَرْغَرَتْ بروحك؛ لم ينفعك ندم، ولم تقبل منك توبة.

ولا تكن من الذين أمِنوا مكر الله تعالى، واغتروا بشهوات الدنيا، ونسوا الموت، وغفلوا عن الآخرة؛ فاستهانوا بالذنوب واحتقروها، اغتراراً بالله تعالى، وإهمالاً لحقه عز وجل، أو تسويفاً بالتوبة إلى حين.

ولم يدروا أن المعاصي بريد الكفر؛ كما قال السلف، ولم يتنبهوا أن العاصي قد يُطبع على قلبه، فلو جاءت الساعة التي وعد بالتوبة فيها؛ لم يتب.

فهذا الأمر (أعني: خطر الكفر والطبع بسبب المعاصي) إذا تدبره العبد؛ امتلأ قلبه خوفاً، واشتد قلقه، وعظم همه، وبادر بالأعمال الصالحة قبل القواطع.

وإياك أيها العاصي! أن تقنط من رحمة ربك؛ فإنه جواد كريم، وفضله واسع عميم، ولتتدبر قوله تبارك اسمه:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ

مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «يخبر تعالى عباده المسرفين؛ أي: المكثرين من الذنوب بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذٰلك؛ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾؛ أي: لا تيأسوا منها؛ فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا؛ فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها؛ فتبقون بسبب ذٰلك مُصرِّين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمٰن، ولٰكن؛ اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنَّ ﴿اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذٰلك من الذنوب الكبار والصغار، ﴿إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للوجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم والفواضل على العباد في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته.

ولٰكن؛ لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد؛ فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة؛ أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره؛ الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح[3]، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى

---

(1) الزمر: ٥٣ ـ ٥٨.

(2) «التيسير» (٤ / ٣٣١ ـ ٣٣٢).

(3) سيأتي بيان معنى «التوبة النصوح» في خاتمة الكتاب.

هٰذا السبب الأجل والطريق الأعظم، ولهٰذا أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها؛ فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم.

إذا أفردت الإنابة؛ دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما؛ كما في هٰذا الموضع؛ كان المعنى ما ذكرنا، وفي قوله: ﴿إلى ربكم وأسلموا له﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً.

﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ مجيئاً لا يُدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾؛ فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتهما وأعمالهما؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة؛ كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذٰلك، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذٰلك مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا؛ فالمتبع لأوامر ربه في هٰذه الأمور ونحوها؛ هو المنيب المسلم.

﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾، وكل هٰذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة».

وقال ابن كثير[1]: «﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾؛ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل».

وقال ابن جرير[2]: «﴿أن تقول نفس﴾؛ بمعنى: لئلا تقول نفس: يا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٦٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٤ / ١٣).

حسرتا على ما فرطت في جنب الله، وهو نظير قوله: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[1]؛ بمعنى: أن لا تميد بكم.

وقوله: ﴿يا حسرتا﴾؛ يعني: يا ندما».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ؛ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي، فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً، وَكُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ؛ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي؛ فَيَكُونُ لَهُ شُكْراً، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾»[2].

* * * * *

(١) النحل: ١٥، ولقمان: ١٠.

(٢) أخرجه الحاكم (٢ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦)، وأحمد (٢ / ٥١٢) وغيرهما، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأودعه الشيخ في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٣٤).

# فصل

## في مقدار لبث أهل الندامة في الدنيا ـ في أعينهم ـ إذا رأوا العذاب

قال الله تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١)

قال القاسمي(٢): «﴿كَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: من عذاب الله ونكاله وخزيه الذي ينزل بهم في الدنيا أو في الآخرة، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾؛ أي: لأنه ينسيهم شدةُ ما ينزل بهم من عذابه قدرَ ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغَ ما فيها مكثوا».

وقال الله تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾(٣)

قال ابن جرير(٤): «حدثنا بشر؛ قال: ثنا يزيد؛ قال: ثنا سعيد عن قتادة؛ قوله: ﴿كَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾؛ وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة».

* * * * *

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) «محاسن التأويل» (١٥ / ٣٨).

(٣) النازعات: ٤٦.

(٤) «جامع البيان» (٣٠ / ٣٢).

# فصل

## في تيقن المجرمين أن لا معدل لهم عن النار

قال الله تعالى:

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[1]

قال ابن كثير[2]: «أي: أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار؛ تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها؛ ليكون ذٰلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز، وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾؛ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها».

قال السعدي[3]: «وفي هٰذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب».

*****

(١) الكهف: ٥٣.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٩٠).

(٣) «التيسير» (٣ / ١٦٦).

# فصل

## في سوق أهل الندامة إلى النار على وجوههم عطاشاً وكبهم فيها، وفظاعة حالهم عند ذلك

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وِرْداً﴾؛ أي: عطاشاً؛ كما قال الطبري[2] وغيره.

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

قال ابن كثير[5]: «﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾؛ أي: يدفعون ويساقون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هٰذه النَّارُ الَّتي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تقول لهم الزبانية ذٰلك تقريعاً

---

(١) مريم: ٨٥ و٨٦.

(٢) «جامع البيان» (١٦ / ٩٦).

(٣) الفرقان: ٣٤.

(٤) الطور: ١٣ ـ ١٦.

(٥) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٤١).

وتوبيخاً، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا﴾؛ أي: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته، ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا؛ لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلاً بعمله».

وقال تعالى:

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل، ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾؛ أي: صوتاً عالياً فظيعاً، ﴿وَهِيَ تَفُورُ[3] . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنك ما تفعل بهم إذا حصلوا فيها؟!

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: حالكم هذه واستحقاقكم النار؛ كأنكم لم تخبروا عنها،

---

(١) الملك: ٦ - ١١.

(٢) «التيسير» (٥ / ٢٧٧ - ٢٧٨).

(٣) ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾، قال ابن كثير في «تفسيره» (٤ / ٣٩٧): «قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير».

وفي «إرشاد العقل» (٥ / ٧٤٥): «﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾؛ أي: والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه».

ولم تحذركم النذر منها.

﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُم إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾؛ فجمعوا بين تكذيبهم الحاضر والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذِرين؛ وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأي عناد وتكبر وظلم يشبه هٰذا؟

﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى؛ وهي السمع لما أنزل الله وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة؛ فلا سمع لهم ولا عقل.

وهٰذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً، والأدلة العقلية المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم في الإيمان بحسب ما منَّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هٰؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِم فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: بُعداً لهم وخسارة وشقاء، فما أشقاهم وأرداهم! حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم وتَطَّلع على أفئدتهم».

وقال الله تعالى في حق من أوتي كتابه بشماله:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (1).

قال القاسمي(2): «﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: يقال لخزنة النار: خذوه بالقهر والشدة، ﴿فَغُلُّوهُ﴾؛ أي: ضموا يده إلى عنقه إذ لم يشكر ما ملكته، ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾(3)، أي: أدخلوه ليَصلى فيها؛ لأنه لم يشكر شيئاً من النعم؛ فأذيقوه شدائد النِّقم، ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾؛ أي: حلقة منتظمة بأخرى وهي بثالثة وهلم جرّا، ﴿ذَرْعُهَا﴾؛ أي: مقدارها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾؛ فأدخلوه فيها؛ أي: لفوه بها بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً لا يقدر على الحركة».

وقال السعدي(4): «﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة؛ ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾؛ أي: انظموه فيها؛ بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هٰذا العذاب الفظيع؛ فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب».

وقال تعالى:

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (5).

قال ابن قتيبة(6): «﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾؛ أي: أُلقوا على رؤوسهم».

وقال سبحانه:

---

(1) الحاقة: ٣٠ - ٣٢.

(2) «محاسن التأويل» (١٦ / ٢٧٧ - ٢٧٨).

(3) قال ابن كثير في «تفسيره» (٤ / ٤١٦): «﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾؛ أي: اغمروه فيها».

(4) «التيسير» (٥ / ٣٠٠).

(5) الشعراء: ٩٤ و٩٥.

(6) «تفسير الغريب» (ص ٣١٨).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]

قال الشوكاني[2]: «معنى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أنهم كبوا فيها على وجوههم، وألقوا فيها وطرحوا عليها، يقال: كَبَبْتُ الرجلَ إذا ألقيته لوجهه فانكبَّ وأكبَّ».

*****

(١) النمل: ٩٠.

(٢) «فتح القدير» (٤ / ١٥٦).

# فصل

## في دعوتهم على أنفسهم بالهلاك والخسران إذا ألقوا في النار

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[1].

قال الشنقيطي[2]: «والأظهر أن معنى ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: أن الكفار يُقرن بعضهم إلى بعض في الأصفاد والسلاسل».

وقال[3]: «معنى دعائهم الثبور؛ هو قولهم: واثبوراه! يعنون: يا ويل! ويا هلاك! تعال؛ فهٰذا حينك وزمانك».

وقال ابن كثير[4]: «والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار».

وقال الزمخشري[5]: «معنى ﴿وادْعُوا ثُبوراً كَثِيراً﴾: أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان، كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا غيرها؛ فلا غاية لهلاكهم».

*****

---

(١) الفرقان: ١٣ و١٤.

(٢) «أضواء البيان» (٦ / ٢٩١).

(٣) «أضواء البيان» (٦ / ٢٩٢).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٣١١).

(٥) «الكشاف» (٣ / ٩٠).

# فصل
## في قول الله تعالى: ﴿وإنْ مِنْكُم إلَّا وارِدُها﴾

قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(١)

قال السعدي(٢): «وهٰذا خطاب لسائر الخلائق؛ بَرهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار حكماً حَتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده؛ فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه» اهـ.

وأصح ما ورد في معنى «الورود» في هٰذه الآية قولان:

**الأول**: دخول النار؛ فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً، وينجيهم الله تعالى منها، ويمكث فيها من شاء الله تعالى من عصاة الموحدين بقدر أعمالهم.

**الثاني**: المرور على الصراط، ولا مانع أن يسمى وروداً؛ (أي: دخولاً)؛ لأن الصراط قد ضرب على متن جهنم وهو جسرها، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كالطرف وكالبرق وكالريح، ومنهم من يسحب سحباً؛ كما سيأتي.

قال الحافظ في «الفتح»(٣): «وهٰذان القولان أصح ما ورد في ذٰلك، ولا تنافي بينهما؛ لأن من عَبَّر بالدخول؛ تَجَوَّزَ به عن المرور، ووجهه أن المار عليها

---

(١) مريم: ٧١ و٧٢.

(٢) «التيسير» (٣ / ٢١٥).

(٣) (٣ / ١٢٤).

فوق الصراط في معنى من دخلها، لٰكن؛ تختلف أحوال المارَّة باختلاف أعمالهم».

ونصر القول الأول صاحب «أضواء البيان»[1]، واختار الثاني شيخ المفسرين[2] لحديث الصِّراط الآتي، والقلب إلى اختياره أميل؛ فالله أعلم.

وفي «موعظة المؤمنين»[3]: «يا أيها الغافل عن نفسه! المغرور بما هو فيه من شواغل هٰذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى موردك؛ فإنك أُخبرت بأن النار مورد للجميع، إذ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْكُم إلاَّ وارِدُها كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً﴾.

فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شك؛ فاستشعر في قلبك هول ذٰلك المورد؛ فعساك تستعد للنجاة منه».

* * * * *

---

(١) انظر: (٤ / ٣٤٨ ـ ٣٥٥).

(٢) «جامع البيان» (١٦ / ٨٤ ـ ٨٥).

(٣) (ص ٤٨٢).

# فصل

## في ذكر الصراط وبيان خطره

في «الصحيحين»[1] وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قلنا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هَلْ تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْواً؟»، قلنا: لا، قال: «فَإِنَّكُم لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُم يَوْمَئِذٍ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا»، ثم قال:

«يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْراً ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ؛ فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ.

ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: ما كُنْتُم تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُم، لَمْ يَكُنْ للهِ صاحِبَةٌ وَلا وَلَدٌ؛ فَما تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا، فَيَتَساقَطُونَ.

حَتَّى يَبْقَى مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ اليَوْمَ، وإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي: لِيَلْحَقَ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا. قال: فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣ / ٤٢٠ ـ فتح) وفي مواضع أخرى، و«صحيح مسلم» (١٨٣).

فِي صُورَةٍ غَيرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيها أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنا؛ فلا يُكَلِّمُهُ إِلاَّ الأَنْبِياءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله رِياءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً وَاحِداً، ثُمَّ يُؤْتَى بِالجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ».

قلنا: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال:

«مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ[١]، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ[٢] وَحَسَكَةٌ[٣] مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ[٤]، تكُونُ بنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ[٥]، يَمُرُّ المُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ؛ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْباً؛ فَمَا أَنْتُم بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وإِذَا رَأَوْا أَنَّهُم قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوانِهِمْ؛ يَقُولُونَ: رَبَّنا إِخْوانُنَا الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينارٍ مِنْ إِيمانٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ؛ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ؛ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينارٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ؛ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ؛

---

(١) (المدحضة) و (المزلة) بنفس المعنى، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر.

(٢) (الكلاليب): جمع كلُّوب، وهي حديدة معطوفة الرأس، يُعلَّق فيها اللحم، وترسل في التنور، و (الخطاطيف) بمعناه؛ وهي جمع خُطَّاف. «نووي».

(٣) شوكة صلبة من حديد، و (المفلطحة) التي فيها عرض واتساع.

(٤) أي: ملوية كالصِّنَّارة.

(٥) (السعدان): نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب. «نووي».

فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا».

قال أبو سعيد: فإن لم تصدّقوني فاقرؤوا: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[1].

«فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ والمَلاَئِكَةُ والمُؤْمِنُونَ؛ فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَاماً قَدْ امْتُحِشُوا[2]؛ فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الحَيَاةِ؛ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ[3]، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا؛ كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ؛ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُم اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ؛ فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: هٰؤُلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمٰنِ؛ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا رَأَيْتُم وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

والحديث في «الصحيحين»[4] أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي لفظه:

«وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ». قال رسول الله ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وبِهِ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُم شَوْكَ السَّعْدَانِ؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ

---

(١) النساء: ٤٠.

(٢) أي: احترقوا.

(٣) (الحِبة): هي بزر البقول والعشب، تنبت في البراري وجوانب السيول وجمعها حِبَب، و(حميل السيل): ما جاء به السيل من طين أو غثاء، ومعناه: محمول السيل، والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته. «نووي».

(٤) «صحيح البخاري» (٢ / ٢٩٢ و١١ / ٤٤٤ و١٣ / ٤١٩ ـ فتح)، و«صحيح مسلم» (١٨٢).

أنَّهـا لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهـا إلاَّ اللهُ، فَتَخْطَفُ النَّاسَ بأعْمالِهِم؛ مِنْهُم المُوبَقُ بِعَمَلِه، ومِنْهُم المُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو.

حَتَّى إذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ القَضاءِ بَيْنَ عِبادِهِ، وأرَادَ أنْ يُخرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أرادَ أنْ يُخْرِجَ؛ مِمَّنْ كانَ يَشْهَـدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ؛ أمَرَ المَلائِكَةَ أنْ يُخْرِجوهُم فَيَعْرِفونَهُم بِعَلامَةِ آثارِ السُّجودِ، وحَرَّمَ اللهُ عَلى النَّارِ أنْ تَأكُلَ مِنِ ابْنِ آدَمَ أثَرَ السُّجـودِ، فَيُخْرِجونَهُم قَدِ امْتُحِشوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ ماءٌ يُقالُ لَهُ: ماءُ الحَياةِ، فَيَنْبُتُونَ نَباتَ الحِبَّةِ في حَمِيلِ السَّيْلِ.

وَيَبْقى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلى النَّارِ، فَيَقولُ: يا رَبِّ! قَدْ قَشَبَني[1] رِيحُها، وَأحْرَقَني ذَكاؤها[2]؛ فاصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَلا يَزالُ يَدْعو اللهَ، فَيَقولُ: لَعَلَّكَ إنْ أعْطَيْتُكَ أنْ تَسْألَني غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أسْألُكَ غَيْرَهُ، فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذلِكَ: يَا رَبِّ! قَرِّبْني إلى بَابِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: ألَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أنْ لا تَسْألَني غَيْرَهُ؟ وَيْلَكَ يا ابْنَ آدَمَ ما أغْدَرَكَ! فَلا يَزالُ يَدْعُو، فَيَقولُ: لَعَلِّي إنْ أعْـطَيْتُكَ ذلِكَ تَسْألُني غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أسْألُكَ غَيْرَهُ؛ فَيُعْطِي اللهَ ما شاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَواثِيقَ؛ أنْ لا يَسْألَهُ غَيْرَهُ؛ فَيُقَرِّبُهُ إلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَإذَا رَأى مَا فِيها؛ سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ! أدْخِلْني الجَنَّةَ، ثُمَّ يَقُولُ: أوَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أنْ لا تَسْألَني غَيْرَهُ؟ وَيْلَكَ يا ابْنَ آدَمَ مَا أغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! لَا تَجْعَلْني أشْقَى خَلْقِكَ، فَلا يَزالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ، فَإذَا ضَحِكَ مِنْهُ؛ أذِنَ لَهُ بِالدُّخولِ فِيها، فَإذَا دَخَلَ فِيها؛ قِيلَ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا؛ فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا؛ فَيَتَمَنَّى حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الأمانِيُّ، فَيَقُولُ لَهُ: هٰذا لَكَ

---

(١) قشبني: معناه سمّني وآذاني وأهلكني، كذا قاله الجماهير من أهل اللغة والغريب، وقال الداودي: «معناه غير جلدي وصورتي». «نووي».

(٢) أي: لهبها واشتعالها وشدة وهجها، يقال: ذَكَتِ النار تَذْكُو ذَكاً، إذا اشتعلت، وأذكيتها أنا. «نووي».

وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً.

وفي «تصفية القلوب»: «من استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم؛ خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى؛ تعثر في أول قدم من الصراط وتردى».

*****

# فصل

## في ذكر القنطرة بين الجنة والنار

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ؛ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فيُقصُّ لِبَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُم فِي الدُّنيا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فوالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيا»[1].

قال الحافظ في «الفتح»[2]: «(إذا خلص المؤمنون من النار)؛ أي: نجوا من السقوط فيها بعد ما جازوا على الصراط».

قال القرطبي: «هؤلاء المؤمنون هم الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم».

قال الحافظ: «ولعل أصحاب الأعراف منهم، وخرج من هذا صنفان من المؤمنين؛ من دخل الجنة بغير حساب، ومن أوبقه عمله».

* * * * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥ / ٩٦ و١١ / ٣٩٥ ـ فتح) وغيره.

(٢) انظر: (١١ / ٣٩٩).

# الباب الرابع

## في حال أهل الندامة وهم في النار وفظاعة العذاب المسلط عليهم، وتنوعه، وذكر أعظم عذابهم

## فصل

## في أول من تسعر بهم النار

حدث شُفَيٌّ الأصبحي أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع الناس عليه؛ فقال: من هٰذا؟ قالوا: أبو هريرة، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا؛ قلت: أنشدك بحق وحق؛ لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة؛ فمكث قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هٰذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، فمكث بذلك ثم أفاق، ومسح وجهه؛ فقال: أفعل لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هٰذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خارّاً على وجهه، وأسندته طويلاً ثم أفاق؛ فقال: حدثني رسول الله ﷺ:

«أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا كانَ يومُ القيامَةِ؛ نزَلَ إلى العِبادِ لِيَقْضيَ بيْنَهُم وكُلُّ أمَّةٍ جاثِيَةٌ، فأوَّلُ مَنْ يَدْعُو بهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ، ورَجُلٌ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ، ورَجُلٌ كثيرُ المَالِ، فيَقُولُ اللهُ للقارِئِ: ألَمْ أُعَلِّمْكَ ما أنْزَلْتُ على رَسُولي؟ قالَ: بلَى يا رَبِّ! قالَ: فمَاذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ قالَ: كُنْتُ أقُومُ بهِ آناءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهارِ؛ فيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، فيَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: أرَدْتَ أنْ يُقالَ: فُلانٌ قارِئٌ؛ فقَدْ قِيلَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وأَتَصدَّقُ؛ فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ؛ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ؛ فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي؛ فقال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أُولَئِكَ الثَّلاَثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

قال النـووي[2]: «قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد، وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله، وإدخالهم النار؛ دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال؛ كما قال الله تعالى: ﴿ومَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً».

وقال ابن رجب[3]: «إنما زاد عذاب أهل الرياء على سائر العصاة؛ لأن الرياء هو الشرك الأصغر، والذنوب المتعلقة بالشرك أعظم من المتعلقة بغيره».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (١ / ٤١٨) بحرفه، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه مسلم (١٩٠٥) والنسائي (٦ / ٢٣) من طريق أخرى، وأخرجه غيرهم.

(٢) «شرح مسلم» (١٣ / ٥٠ - ٥١).

(٣) «التخويف من النار» (ص ٢٢٣).

# فصل

## في دعوة أهل الندامة على أنفسهم بالهلاك والشقاء إذا مستهم نفحة من عذاب الله تعالى

قال الله عز وجل:

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1].

و(الويل): الحزن والهلاك والمشقة من العذاب، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه: يا حزني، ويا هلاكي، ويا عذابي! احضر؛ فهٰذا وقتك وأوانك؛ كذا في «النهاية».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ؛ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً[2]، ثُمَّ يُقالُ: يا ابنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا واللهِ يا رَبِّ...» الحديث[3].

* * * *

---

(١) الأنبياء: ٤٦.

(٢) أي: يُغمس غمسة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) وغيره.

# فصل

## في طلب جهنم المزيد منهم

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾(١).

قال السعدي(٢): «يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ﴾، وذٰلك من كثرة ما ألقي فيها، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؛ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين غضباً لربها وغيظاً على الكافرين، وقد وعدها الله مَلْأَها؛ كما قال تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٣)».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ؛ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ والمُتَجَبِّرِينَ، وقَالَتِ الجَنَّةُ: مَالِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبادِي، وَقالَ لِلنَّارِ: إِنَّما أَنْتِ عَذابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبادِي، ولِكُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُما مِلْؤُها، فَأَمَّا النَّارُ؛ فَلا تَمْتَلِئُ، (وفي رواية: فَيُلْقَوْنَ فِيها؛ فَتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ـ ثلاثاً) حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ؛ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ(٤)، فَهُنالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُها إِلَى بَعْضٍ، ولا يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أحداً، وأَمَّا الجَنَّةُ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَها خَلْقاً»(٥).

---

(١) ق: ٣٠.

(٢) «التيسير» (٥ / ٨٦).

(٣) السجدة: ١٣.

(٤) معنى (قط): حسبي، أي: يكفيني هٰذا، وفيه ثلاث لغات: قطْ وقطِ وقطٍ. «نووي».

(٥) أخرجه البخاري (٨ / ٥٩٥ و١٣ / ٤٣٤ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٤٦) وغيرهما.

# فصل

## في تبرؤ الشيطان من أتباعه في النار

قال الله جل ثناؤه:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]

قال ابن كثير[2]: «يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده؛ فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - يومئذ خطيباً؛ ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغَبْناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: **﴿إِنَّ اللهَ وَعدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾**؛ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صادقاً، وأما أنا؛ فوعدتكم فأخلفتكم؛ كما قال تعالى: **﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلَّا غُروراً﴾**[3]، ثم قال: **﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾**؛ أي ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه، ولا حجة فيما وعدتكم به **﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لِي﴾** بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به؛ فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، **﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾** اليوم **﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُم﴾**؛ فإن الذنب لكم؛ لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، **﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُم﴾**؛

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٢٩).

(٣) النساء: ١٢٠.

أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾؛ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾؛ قال قتادة: أي: بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهٰذا الذي قاله هو الراجح.

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل؛ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والظاهر من سياق الآية أن هٰذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار».

*****

# فصل

## في تخاصم أهل النار

قال الله تعالى:

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾(1).

أي: ليس لنا مهرب ولا ملجأ نلجأ إليه، ولا خلاص مما نحن فيه من العذاب؛ سواء أصبرنا عليه أم لم نصبر.

وقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾(2).

وقال سبحانه:

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(3).

وقال تعالى:

---

(1) إبراهيم: ٢١.

(2) غافر: ٤٧ و٤٨.

(3) الشعراء: ٩٤ ـ ١٠٢.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (١).

وقال سبحانه:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٢).

وقال عز وجل:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣)

*****

---

(١) الأعراف: ٣٨ و٣٩، وقوله تعالى: ﴿ادَّارَكُوا﴾ معناه: تتابعوا فيها واجتمعوا؛ كما في «تفسير الغريب» لابن قتيبة.

(٢) ص: ٥٩ ـ ٦٤.

(٣) الصافات: ٢٧ ـ ٣٤.

# فصل

## في مقت أهل الندامة أنفسهم وطلبهم الرجعة وهم في النار

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «يقول تعالى مخبراً عن الكفار؛ أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به؛ فمقتوا عند ذلك أنفسهم، وأبغضوها غاية البغض؛ بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً، نادوهم نداء؛ بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان؛ فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُم أَنْفُسَكُم إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا؛ فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة، وهكذا قال الحسن البصري، ومجاهد، والسدي، وذر ابن عبيد الله الهمداني، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبري رحمة الله عليهم أجمعين.

---

(١) غافر: ١٠ و١١.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٧٢ و٧٣).

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾؛ قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه: هٰذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وكُنْتُم أَمْواتاً فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١)، وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك، وهٰذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.

والمقصود من هٰذا كله؛ أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة؛ فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال؛ سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة؛ فلا يجابون، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسَّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها؛ كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم.

وفي هٰذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدّموا بين يدي كلامهم مقدمة؛ وهي قولهم: ﴿رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: قدرتك عظيمة؛ فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمتنا، ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا؛ ﴿فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا، فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه؛ فإنا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا» اهـ.

وقال سبحانه:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ٢٨.

(٢) فاطر: ٣٧.

قال ابن القيم[1]: «فمن لم يُوَرِّثْـهُ التعميرُ وطولُ البقاء إصلاحَ معائبه، وتـداركَ فارِطِـه، واغتنـامَ بقيةِ أنفاسه؛ فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا؛ فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة، وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله؛ كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله؛ كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل، فالمسافر إما صاعد وإما نازل».

وقال سبحانه:

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[2].

قال السعـدي[3]: «هـٰذا القول ـ نسأله تعالى العافية ـ أعظم قول على الإطلاق، يسمعه المجرمون في التخييب والتوبيخ والذل والخسارة والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهٰذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم وأبلغ في نِكايتهم من عذاب الجحيم».

*****

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٤٤).

(٢) المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨.

(٣) «التيسير» (٣ / ٣٧٧).

# فصل

## في أن الظالمين لا تنفعهم المعذرة ولا يعطون العتبى

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُم﴾؛ أي: اعتذارهم مما فعلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[4]؛ أي: ولا هم يُرجعون إلى الدنيا» اهـ.

وقال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5]

قال السعدي[6]: «أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ؛ فيقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾؛ أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر

---

(١) غافر: ٥٢.

(٢) الروم: ٥٧.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٤٤٠).

(٤) أي: ولا تُطلب منهم العتبى؛ وهي الرجوع إلى ما يرضي الرب جل وعلا؛ فإن ذٰلك قد فات أوانه، والرد إلى الدنيا للتوبة قد ذهب زمانه.

(٥) التحريم: ٧.

(٦) «التيسير» (٥ / ٢٧٠).

بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه».

وقال تعالى:

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾[1].

قال الزمخشري[2]: «أي: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار.

﴿وإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ وإن يسألوا العتبى (وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون) جزعاً مما هم فيه؛ لم يُعْتَبُوا، أي: لم يُعْطَوُا العتبى، ولم يجابوا إليها».

وقال القرطبي[3]: «(العتبى): رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب».

وقال الشنقيطي[4]: «في قراءة الجمهور: ﴿وإِنْ يَستَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ﴾؛ أي: وإن يطلبوا العتبى (وهي الرضا عنهم) - لشدة جزعهم - فما هم من المعتبين، بصيغة اسم المفعول؛ أي: المُعْطَيْن العتبى، وهي الرضا عنهم.

وأما على قراءة من قرأ: ﴿وإِنْ يُسْتَعْتَبُوا﴾ بالبناء للمفعول؛ ﴿فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتِبِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل؛ فالمعنى: أنهم لو طلبت منهم العتبى، وردوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله وطاعة رسله؛ فما هم من المعتِبين؛ أي: الراجعين إلى ما يرضي ربهم، بل يرجعون إلى كفرهم الذي كانوا عليه أولاً، وهٰذه القراءة

---

(1) فصلت: ٢٤.

(2) «الكشاف» (٣ / ٣٩٠).

(3) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥ / ٣٥٤).

(4) «أضواء البيان» (٣ / ٣٣٠ و٣٣١).

كقوله تعالى: ﴿ولَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾[1]» اهـ.

وقال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[2]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار.

قال الشنقيطي[3]: «الترتيب بـ (ثم) في قوله في هٰذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ على قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾؛ لأجل الدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع من الاعتذار المشعر بالإقناط الكلي؛ أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم بكفرهم».

*****

---

(١) الأنعام: ٢٨.

(٢) النحل: ٨٤.

(٣) «أضواء البيان» (٣ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

# فصل

## في زفيرهم في النار وشهيقهم

قال الله تعالى:

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾[2].

﴿لَهُم فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾؛ أي: لشدة ما هم فيه من العذاب والأهوال المورثة للخوف الشديد، والهم العظيم، والآلام المتتابعة؛ كان نفسهم زفيراً، وأخذهم للنفس شهيقاً كالحمار، وهٰذا أشنع الأصوات وأقبحها، نعوذ بالله تعالى من التردي والهوان.

وقال الشنقيطي[3]: «للعلماء أقوال في معنى الزفير والشهيق، وأقربها أنهما يمثلهما معاً صوت الحمار في نهيقه؛ فأوله زفير، وآخره الذي يردده في صدره شهيق».

*****

---

(١) الأنبياء: ١٠٠.

(٢) هود: ١٠٦.

(٣) «أضواء البيان» (٦ / ٢٨٨).

# فصل

## في شدة بكائهم في النار

قال الله تعالى:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيبكون كثيراً في عذاب أليم، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم».

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِم لَجَرَتْ، وإِنَّهُم لَيَبْكُونَ الدَّمَ (يعني: مكان الدمع)»[3].

فانظر يا عبد الله! إلى شدة بكائهم في النار، وتخيل نفسك لو كنت منهم؛ كيف ستبكي الدم من شدة ما أنت فيه من العذاب؟! فاتق الله وابك على خطيئتك من قبل أن لا ينفعك البكاء، ولا يُقبل منك الندم.

اتق الله ولا تفرح بتحصيل الدنيا الزائلة، ونيل شهواتها المحرمة؛ فإنها ستعقبك آلاماً شديدة، وأحزاناً كثيرة، وويلات طويلة.

وتدبر قول الله عز وجل:

---

(١) التوبة: ٨٢.

(٢) «التيسير» (٢ / ٢٧١ - ٢٧٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٤ / ٦٠٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وكذا الألباني في «الصحيحة» (١٦٧٩) لشاهده الذي في ابن ماجه (٤٣٢٤).

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾(١).

وقوله سبحانه:

﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾(٢).

وقوله تبارك اسمه:

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾(٣).

يفرحون بالشهوات المحرمات مدة الدنيا القصيرة، ثم يفارقونها، فينتقلون من المسرات إلى الحسرات؛ فأفٍ للذات منغصة فانية، تورث ندامة باقية دائمة.

ثم تفكر في مقابل ذٰلك في حال أهل الإيمان والتقوى، وما هم فيه من النعيم واللَّذة والسرور والنَّضرة؛ كما قال أرحم الراحمين:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾(٤).

وقال سبحانه:

﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾(٥)

لأنهم خافوه تعالى؛ فاتَّقَوْهُ واجتنبوا ما يُسخطه سبحانه، متحملين أجْلَه

---

(١) الانشقاق: ١٠ ـ ١٣.

(٢) الرعد: ٢٦.

(٣) غافر: ٧٥.

(٤) الانشقاق: ٧ ـ ٩.

(٥) الإنسان: ١١ و١٢.

كل شاق وصعب ومكروه للنفس، ولم يفرحوا بتناول ما حرمه عليهم، بل إذا فعلوا شيئاً من ذٰلك؛ ضاق صدرهم وتنغص عيشهم؛ فسارعوا بالتوبة والاستغفار، ولم يصروا على ما فعلوا من الأوزار؛ فالواحد منهم إذا عصى وأساء؛ هاج في قلبه الخوف، واشتد ندمه، وكثر منه البكاء.

وقد نبه الحق جل وعلا على ما ينبغي الفرح به مما يورث الفرح الأكبر، والسرور الأعظم؛ فقال سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

قال السعدي(٢): «﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ﴾؛ الذي هو القرآن؛ الذي هو أعظم نعمة ومِنة وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿ورَحْمَتِهِ﴾؛ الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته.

﴿فبذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها؛ فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذٰلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهٰذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل فإن هٰذا مذموم؛ كما قال تعالى عن قول قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾(٣).

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما

---

(١) يونس: ٥٨.

(٢) «التيسير» (٢ / ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٣) القصص: ٧٦.

جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[1].

ولابن المبارك[2]:

وَكَيْفَ قَرَّتْ لأَهْلِ العِلْمِ أَعْيُنُهُم ... أو اسْتَلَذُّوا لَذِيذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا
والمَوْتُ يُنْذِرُهُم جَهْراً عَلَانِيَةً ... لَوْ كَانَ للقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا
وَالنَّارُ ضَاحِيَةٌ لَا بُدَّ مَوْرِدُهُم ... وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ
والآدَمِيُّ بِهَذا الكَسْبِ مُرْتَهَنٌ ... لَهُ رَقِيبٌ عَلَى الأَسْرَارِ يَطَّلِعُ
حَتَّى يُوافِيهِ يَوْمَ الجَمْعِ مُنْفَرِداً ... وَخَصْمُهُ الجِلْدُ والأَبْصَارُ والسَّمْعُ
إِذِ النَّبِيُّونَ والأَشْهَادُ قَائِمَةٌ ... والإِنْسُ والجِنُّ والأَمْلَاكُ قَدْ خَشَعُوا
وطَارَتِ الصُّحْفُ فِي الأَيْدِي مُنَشَّرَةً ... فِيهَا السَّرائِرُ والأَخْبَارُ تُطَّلَعُ
يَوَدُّ قَوْمٌ ذَوو عِزٍّ لَو أَنَّهُمُ ... هُمُ الخَنَازِيرُ كَيْ يَنْجُوا أَوِ الضُّبُعُ[3]
كَيْفَ شُهُودُكَ والأَنْبَاءُ وَاقِعَةٌ ... عَمَّا قَلِيلٍ وَلَا تَدْرِي بِمَا يَقَعُ
أَفِي الجِنَانِ وَفَوْزٍ لَا انْقِطَاعَ لَهُ ... أَمِ الجَحِيمِ فَمَا تُبْقِي وَلَا تَدَعُ
تَهْوِي بِهَلْكَاتِهَا طَوْراً وَتَرْفَعُهُم ... إِذَا رَجَوا مَخْرَجاً مِنْ غَمِّهَا وَقَعُوا
طَالَ البُكَاءُ فَلَمْ يَنْفَعْ تَضَرُّعُهُم ... هَيْهَاتَ لَا رِقَّةٌ تُغْنِي وَلَا جَزَعُ
هَلْ يَنْفَعُ العِلْمُ قَبْلَ المَوْتِ عَالِمَهُ ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

* * * * *

---

(١) غافر: ٨٣.

(٢) «ديوانه» (ص ٥٥ ـ ٥٦).

(٣) جمع ضَبُع وضَبْع: ضرب من السباع معروف.

# فصل

## في غلظة عذابهم في النار وكثرة أنواعه

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[2].

قال الطبري[3]: «يقول جل ثناؤه: لهٰؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴿مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع؛ كالفراش الذي يفرش، والبساط الذي يبسط، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِم غَوَاشٍ﴾ وهو جمع غاشية، وذلك ما غشّاهم فغطاهم من فوقهم، وإنما معنى الكلام: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ من تحتهم فُرُش، ومن فوقهم منها لُحُف، وإنهم بين ذٰلك».

وروى عن محمد بن كعب والضحاك والسدي؛ أن (المهاد): الفراش، و(الغواش): اللحف.

وقال تعالى:

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ

(١) النساء: ٥٦.

(٢) الأعراف: ٤١.

(٣) «جامع البيان» (٨ / ١٣٢).

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[1].

قال الطبري[2]: «(الصديد): هو القيح والدم»، ثم روى ذلك عن مجاهد.

وروى عن قتادة أنه قال: «الصديد ما يسيل من دمه ولحمه وجلده».

وقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، قال ابن كثير[3]: «أي: يتغصصه ويتكرّهه؛ أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾؛ أي: يردده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع».

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، قال السعدي[4]: «أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾[5]، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾؛ أي: الجبار العنيد، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: قوي شديد، لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى» اهـ.

وقال قتادة بعد ذكر هذه الآية: «هل لكم بهذا يدان، أم لكم على هذا صبر؟ طاعة الله أهون عليكم يا قوم؛ فأطيعوا الله ورسوله».

وقال تعالى:

(١) إبراهيم: ١٥ ـ ١٧.

(٢) «جامع البيان» (١٣ / ١٣٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٢٦).

(٤) «التيسير» (٣ / ١٣).

(٥) فاطر: ٣٦ و٣٧.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿نُمَتِّعُهُم قليلاً﴾ في الدنيا ليزداد إثمهم ويتوفر عذابهم، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُم﴾؛ أي: نلجئهم ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: انتهى في عظمه وكبره وفظاعته وألمه وشدته».

وقال ابن كثير[3]: «﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: فظيع صعب مشق على النفوس».

وقال الله تعالى:

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾[4].

(الحميم): الماء الذي اشتد حره وانتهى غليانه.

و(الغساق)؛ كما قال ابن كثير[5]: «هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم؛ فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه».

قال السعدي[6]: «﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾؛ أي: للمتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾؛ أي: لشر مرجع ومنقلب، ثم فصله؛ فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قرها، ﴿يَصْلَوْنَها﴾؛ أي: يُعذبون فيها عذاباً يُحيطُ بهم من كل وجه، ﴿لَهُم مِنْ فَوْقِهِم

---

(١) لقمان: ٢٤.

(٢) «التيسير» (٤ / ١١٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٤٥٠).

(٤) ص: ٥٥ - ٥٨.

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٦٤).

(٦) «التيسير» (٤ / ٢٩٧).

ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِم ظُلَلٌ﴾[1]، ﴿فَبِئْسَ المِهَادُ﴾ المعد لهم مسكناً ومستقراً.

﴿هٰـذا﴾ المهـاد، وهٰذا العذاب الشديد والخزي والفضيحة والنكال، ﴿فَلْيَذُوقُـوهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار، قد اشتـد حره، يشربـونه، فيقطع أمعاءهم، ﴿وغسَّاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب من قيح وصديد، مُر المذاق، كريه الرائحة، ﴿وآخَرُ مِنْ شَكْلِه﴾؛ أي: من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ﴾؛ أي: عدة أصناف من أصناف العذاب يعذبون بها، ويخزون بها».

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2].

قال الطبري[3]: «﴿وطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾؛ يقول: وطعاماً يغص به آكله؛ فلا هو نازل عن حلقه، ولا هو خارج منه».

وروى عن ابن عباس؛ أنه شوك يأخذ بالحلق؛ فلا يدخل، ولا يخرج.

وقال السعدي[4]: «﴿وطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾، وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه، وريحه الخبيث المنتن».

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ

---

(١) الزمر: ١٦.

(٢) المزمل: ١٢ و١٣.

(٣) «جامع البيان» (٢٩ / ٨٥).

(٤) «التيسير» (٥ / ٣٢٧).

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا؛ لأَفْسَدَتْ عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُم؛ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟!»[2].

قال المناوي[3]: «القصد بهٰذا الحديث وما أشبهه التنبيه على أنَّ أدوية القلوب استحضار أحوال أهل الشقاء وديارهم، فإن النفس مشغولة بالتفكر في لذائذ الدنيا، وقضاء الشهوات، وما من أحد إلا وله في كل حالة ونَفَس من أنفاسه شهوة سلطت عليه واسترقته؛ فصار عقله مسخراً لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة، أو مباشرة قضاء الشهوة، فعلاج ذٰلك أن تقول لقلبك ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت، وما بعده من أهوال الموقف، ثم عذاب جهنم وطعام أهلها وشرابهم فيها، يورد على فكره مثل هٰذا الحديث، ويقول: كيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا؟» اهـ.

فتخيل يا عبد الله! شدة العذاب في جهنم وفظاعته، وكرر ذٰلك على قلبك، عسى أن تجود نفسك بالندم على المعصية قبل الموت، فتعتق من النار، وتسلم من سخط الجبار، عياذاً بالله منه.

واعلم يا أخي! أن ما في النار من العذاب فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال؛ فإنها مثوى الحسرة والندم، ومحل الهموم والغموم، ودار الهلاك والخسران، نسأل الله تعالى ذا الرحمة الواسعة أن يصرفها عنا بِمَنِّه وكرمه.

---

(١) الدخان: ٤٣ ـ ٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وابن حبان (٢٦١١ ـ موارد)، والحاكم (٢ / ٢٩٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (١ / ٣٣٨) وغيره، وضعفه الألباني.

(٣) «فيض القدير» (٥ / ٣٠٩).

# فصل

## في فظاعة العذاب المسلط على وجوههم

قال الله تعالى:

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «لو يعلم الذين كفروا حالهم الشنيعة، حين لا يكفون عن وجوههم العذاب، ولا عن ظهورهم؛ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان، ﴿ولاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرهم؛ فلا نصروا ولا انتصروا، ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ النار ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُم﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم».

قال ابن كثير[3]: «﴿فَتَبْهَتُهُم﴾؛ أي: تذعرهم، فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون، ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعونَ رَدَّها﴾؛ أي: ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿ولاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾؛ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة».

وقال سبحانه:

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾[4].

قال الشنقيطي[5]: «﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تحرقها حرقاً شديداً.

---

(١) الأنبياء: ٣٩ و٤٠.

(٢) «التيسير» (٣ / ٢٧٩ - ٢٨٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ١٧٩).

(٤) المؤمنون: ١٠٤.

(٥) انظر: «أضواء البيان» (٥ / ٨٢٤)، وقد تقدم تفسير الآية بأوسع من هذا.

﴿وهُمْ فِيها كَالِحُونَ﴾؛ (الكالح): هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه، والنار ـ والعياذ بالله ـ تحرق شفاههم حتى تتلقص عن أسنانهم؛ كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر».

قال القاسمي[1]: «وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء؛ فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار.

﴿وهُمْ فِيها كَالِحُونَ﴾؛ أي: مشوهون قبيحو المنظر».

وقال الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، ويتمنون وهم كذلك أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول».

وقال السعدي[4]: «﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم فِي النَّارِ﴾، فيذوقون حرها ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا، ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾؛ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن؛ أمنية فات وقتها؛ فلم تفدهم إلا حسرة وندماً وهماً وغماً وألماً».

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ

---

(١) «محاسن التأويل» (١٢ / ١٠٢).

(٢) الأحزاب: ٦٦.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٥١٩) بتصرف.

(٤) «التيسير» (٤ / ١٧٢).

سَقَرَ﴾(١).

قال الطبري(٢): «قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، يقول تعالى ذكره: إن المجرمين في ذهاب عن الحق وأخذ على غير هدى، ﴿وَسُعُرٍ﴾، يقول: في احتراق من شدة العناء والنَّصَب في الباطل».

وقال ابن كثير(٣): «يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق وسعر؛ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهٰذا يشمل كل من اتصف بذٰلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾؛ أي: كما كانوا في سعر وشك وتردد؛ أورثهم ذٰلك النار، وكما كانوا ضُلالاً؛ يسحبون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾».

وقال سبحانه:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾(٤).

قال السعدي(٥): «﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم، ﴿النَّارُ﴾؛ أي: تحيط بها وتصلاها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى».

وقال سبحانه:

---

(١) القمر: ٤٧ و٤٨.

(٢) «جامع البيان» (٢٧ / ٦٤).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٦٧).

(٤) إبراهيم: ٤٩ و٥٠.

(٥) «التيسير» (٣ / ٢٦).

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «أي: هل يستوي هٰذا الذي هداه الله ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته ومن كان في ضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة؛ فجاءه العذاب العظيم، فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه؛ فهو يتقي فيه سوء العذاب؛ لأنه قد غُلَّت يداه ورجلاه، ﴿وقِيلَ للظَّالِمينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخاً وتقريعاً ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُم تَكْسِبُونَ﴾».

* * * *

(١) الزمر: ٢٤.

(٢) «التيسير» (٤ / ٣٢٠).

# فصل

## في إغاثتهم بماء كالمهل إذا استغاثوا

قال الله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «قال ابن عباس: (المهل): الماء الغليظ مثل دُرْدي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال آخرون: هو كل شيء أذيب، وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وازبد؛ قال: هٰذا أشبه شيء بالمهل، وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهٰذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هٰذه الأوصاف الرذيلة كلها؛ فهو أسود، منتن، غليظ، حار».

وقال السعدي[3]: «﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثوا﴾؛ أي: يطلبوا الشراب ليطفيء ما نزل بهم من العطش الشديد، ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْل﴾؛ أي: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته، ﴿يَشْوِي الوُجُوهَ﴾؛ أي: فكيف بالأمعاء والبطون؟!».

وقال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

---

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٨١ ـ ٨٢).

(٣) «التيسير» (٣ / ١٥٥).

اللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

فتخيل نفسك يا عبد الله! وقد أحاطت بك النار من جميع جهاتك، وفاجأتك بلهبها، وعمت وجهك ولفحته، فتحيرت ولم تستطع لها ردّاً، ولم تجد منها ملجأً ولا مهرباً، ولا عنها مصرفاً ولا معدلاً:

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾[2].

وتخيل نفسك فيها وأنت تلبس ثياباً من نار، وسرابيل من قطران، قد اتكلت واشتد التهابها، والتصقت بجسدك؛ فأوهنته بحرها العظيم، ولذعها الأليم.

قال الله تعالى:

﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾[3].

قال ابن كثير[4]: «أي: فصلت لهم مقطعات من النار».

وقال سبحانه:

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[5].

و (الأصفاد): الوثاق من غل وسلسلة؛ كما قال الطبري[6].

---

(١) الأعراف: ٥٠.

(٢) الهمزة: ٨ و٩.

(٣) الحج: ١٩.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٢١٢).

(٥) إبراهيم: ٤٩ و٥٠.

(٦) «جامع البيان» (١٣ / ١٦٧).

وروى عن معمر عن قتادة ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ قال: «مقرنين في القيود والأغلال».

وقال ابن كثير[1]: «﴿مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظائر أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف» اهـ.

و﴿سَرَابِيلُهُم﴾؛ أي: قُمُصُهم، واحدها سِرْبال؛ كذا قال ابن قتيبة[2].

وفي «القاموس»: «السِّربال، بالكسر: القميص أو الدرع أو كل ما لُبس».

قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، قال ابن كثير[3]: «أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهْنأ به الإبل، أي: تُطلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار».

وفي «التخويف من النار»[4]: «ولما ماتت النَّوار امرأة الفرزدق ودفنت؛ وقف الفرزدق على قبرها وأنشد بحضور الحسن رحمه الله هذه الأبيات؛ قال:

أَخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إِنْ لَمْ يُعَافِنِي ... أَشَدَّ مِنَ الْقَبْرِ الْتِهَاباً وَأَضْيَقَا
إِذَا جَاءَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَائِدٌ ... عَنِيفٌ وَسَوَّاقٌ يسوقُ الفَرَزْدَقَا
لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَنْ مَشَى ... إِلَى النَّارِ مَغْلُولَ الْقِلَادَةِ أَزْرَقَا
يُسَاقُ إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ مُسَرْبَلاً ... سَرَابِيلَ قَطْرَانٍ لِبَاساً مُحَرَّقَا
إِذَا شَرِبُوا فِيهَا الصَّدِيدَ رَأَيْتَهُم ... يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمَزُّقَا

---

(1) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٤٤).

(2) «غريب القرآن» (ص ٤٣٤).

(3) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٥٤٥).

(4) (ص ١٢٩ ـ ١٣٠).

فبكى الحسن رحمة الله عليه» اهـ.

وتخيل نفسك تأكل فيها طعاماً من الزقوم والغسلين والضريع؛ شديد الحرارة، منتن الرائحة، فظيع المنظر، قبيح الطعم، لا تكاد تسيغه لفظاعته وشدة حرارته، ولكن؛ لا بد لك من أكله قسراً وقهراً.

قال الله تعالى:

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[1].

و(الضريع): يابس الشِّبْرِق[2]، وهو سم قاتل تتحاماه الإبل.

وقال سبحانه:

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[3].

و(الغِسلين): ما ينغسل من أبدان أهل النار من القيح والصديد، وما يخرج من جراحهم وأدبارهم.

وقال جل ثناؤه عن الزقوم:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[4].

قال ابن كثير[5]: «﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطِينِ﴾؛ تبشيع لها وتكريه لذكرها، قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء، وإنما شبهها برؤوس الشياطين - وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين -؛ لأنه قد استقر في

---

(١) الغاشية: ٦ و٧.

(٢) (الشِّبْرِق): نبت يعرفه أهل الحجاز.

(٣) الحاقة: ٣٦.

(٤) الصافات: ٦٤ و٦٥.

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ١٠).

النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر» اهـ.

وتخيل نفسك بعد ذلك تستغيث بالماء؛ لما تعرف عنه في الدنيا من تخفيف الحرارة، وتسهيل الإساغة للطعام؛ فتغاث بماء قد انتهى حره؛ كأنه الرصاص أو الفضة المذابة بالنار، أو عكر الزيت الذي قد بلغ النهاية في الحرارة.

تغاث بماء كالمهل ـ كما تقدم ـ، وبطنك مملوء بطعام كالمهل، وهو يغلي غلياناً شديداً، ويضطرب في جوفك من شدة حرارته؛ فيحرقه ويمزقه؛ فأي عذاب أبشع من هذا؟!

وتخيل نفسك وأنت تشرب الغساق؛ وهو شراب في غاية البرودة لا يطاق من برده ونتنه وقذارته، قال الله تعالى:

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[1].

وتخيل نفسك وأنت مغلول العنق، تسحب بالسلاسل؛ فتساق إلى عين آنية من الحميم؛ فتشرب منها.

ثم يوقد عليك في النار؛ فتغمر فيها وتصلى بلهبها العظيم، ثم تعاد إلى الحميم.

وهكذا حالك لو كنت ـ والعياذ بالله ـ من الكافرين؛ كما قال الله عز وجل:

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[2].

و﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾؛ أي: ماء قد أُسخن وأُغلي حتى انتهى حره وأنى طبخه،

---

(١) النبأ: ٢٤ و٢٥.

(٢) الرحمن: ٤٤.

وكل شيء قد أدرك وبلغ؛ فقد أنى، أفاده الطبري[1].

فتارة في الحميم، وتارة في الجحيم؛ فأي شقاء أعظم من هٰذا؟! وأي نصب أشد منه؟! وأي ذل فوقه؟!

وقد صدق الله تعالى بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[2].

فانظر يا عبد الله! إلى فظاعة هٰذا العذاب، ما أعظمه! وما أشد ألمه، وقهره للنفوس، وإذلاله لها!

وأدم الفكرة فيه، وتصور أنك أنت المعذب، وإن خطر ببالك أن بعض هٰذا العذاب خاص بالكفار؛ فاعلم أن الفكرة على كل حال مفيدة، فمن فوائدها؛ أنها تجعل العبد يزداد حذراً من الكفر حتى يكره أن يعود إليه أو يكون من أهله بعد إذ أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يلقى في النار.

وكذلك تجعله حذِراً مما يجر إليه من المعاصي، وبخاصة الكبائر منها؛ فإن المعاصي بريد الكفر.

وكذلك تجعله حذراً من البدعة التي هي ـ والعياذ بالله ـ استدراك من صاحبها على الشرع، وداعية إلى الضلالة، «وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[3].

وقد بين العلماء رحمهم الله تعالى عقوبات المعاصي، وكيف أنها تؤدي ـ إن لم يسلم الله تعالى ـ إلى الكفر.

وفصَّل ذٰلك ابن القيِّم رحمه الله تعالى في «الجواب الكافي» بما لا نظير

---

(١) «جامع البيان» (٢٧ / ٨٣ ـ ٨٤).

(٢) الغاشية: ٢ ـ ٤.

(٣) صح هٰذا عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، منها ما في «صحيح مسلم» (برقم ٨٦٧).

له، فمن ذلك أنه قال:

«ومنها ـ وهو من أخوفها على العبد ـ: أنها تضعف القلب عن إرادته؛ فتقوى إرادةُ المعصية، وتضعف إرادةُ التوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه؛ لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مُصِرٌّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت؛ طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين؛ كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(1)؛ قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يَعْمَى القلبُ.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلبَ يصدأ من المعصية، فإذا زادت؛ غلب الصدأ حتى يصير راناً، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً؛ فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة؛ انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ؛ يتولاه عدوُّه ويسوقه حيث أراد».

وذكر رحمه الله أن المعاصي تُخرج العبدَ من دائرة الإحسان، ثم بين كيف أنها تخرجه بعد ذلك من دائرة الإيمان، ثم قال: «فإن استمر على الذنوب وأصرَّ عليها خِيفَ عليه أن يَرِين على قلبه؛ فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن هٰهنا اشتد خوف السلف» اهـ.

---

(1) المطففين: 14.

# فصل

وفوائد ما ذكرته من الفكرة في العذاب وتخيل وقوعه ـ ولو كان بعضه خاصّاً بالكفار ـ كثيرة جداً، وأوضح من أن تقام عليها الأدلة.

فمن ذلك ـ أيضاً ـ: أن العبد يعرف قدر ما مَنَّ الله به عليه من نعمة الهداية؛ فهو لولا فضل الله عليه ورحمته لما اهتدى؛ فيزداد بذلك محبة لربه تبارك اسمه، وشكراً له أن صرف عنه ما يوجب سخطه جوداً منه سبحانه وكرماً، فيلهج بحمده والثناء عليه؛ كما ذكر سبحانه عن أهل السعادة:

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(1).

*****

---

(1) الأعراف: ٤٣.

# فصل

## في تعذيب أهل الندامة بالحميم سحباً فيه وشرباً له، وصبه من فوق رؤوسهم

قال الله تعالى:

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[1].

(الحميم): الماء الذي قد انتهى غليانه.

وقال سبحانه:

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[2].

قال بعضهم[3]:

وفي جهنم ماءٌ ما تجرَّعه ... خلقٌ فأبقى له في البطنِ أمعاءَ

وقال سبحانه:

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[4].

قال الشنقيطي[5]: «﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِم﴾؛ أي: يذاب بذلك الحميم - إذا سقوه فوصل إلى بطونهم - كل ما في بطونهم من الشحم والأمعاء

---

(١) غافر: ٧١ و٧٢.

(٢) محمد: ١٥.

(٣) «التخويف من النار» (ص ١٢١).

(٤) الحج: ١٩ و٢٠.

(٥) «أضواء البيان» (٥ / ٥٣).

وغير ذلك .

وقوله : ﴿والجُلود﴾ الظاهر أنه معطوف على (ما) من قوله : ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِم﴾ التي هي نائب فاعل (يصهر)، وعلى هٰذا الظاهر المتبادر من الآية ؛ فذٰلك الحميم يذيب جلودهم كما يذيب ما في بطونهم لشدة حرارته» .

*****

## فصل

### في صب الرصاص في أذن من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلُمٍ لَمْ يَرَهُ؛ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ؛ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً؛ عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»[1].

(الآنُك): الرصاص المذاب، وهذا العذاب من الجزاء من جنس العمل.

## فصل

### في أن ذا الوجهين في الدنيا له لسانان من نار يوم القيامة

عن عمار رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا؛ كَانَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ»[2].

*****

---

(١) أخرجه البخاري (١٢ / ٤٢٧ - فتح) وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٣) وغيره، وصححه الألباني لطرقه في «الصحيحة» (٢ / ٥٨٥).

# فصل

## فيمن يدور في النار كالحمار جاراً أمعاءه

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ[1] فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ؛ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ! مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُم بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ»[2].

# فصل

## فيمن وطىء إزاره خيلاء

عن هبيب الغفاري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ وَطِىءَ عَلَى إِزَارِهِ خُيَلَاءَ؛ وَطِئَهُ فِي النَّارِ»[3].

قال المناوي[4]: «(من وطىء على إزار)؛ أي: علاه برجله، (خيلاء)؛ أي: تيهاً وتكبراً، (وطئه في النار)؛ أي: يلبس مثل ذلك الثوب ـ الذي كان يرفل فيه في الدنيا ويجره تعاظماً ـ في نار جهنم، ويعذب باشتعال النار فيه جزاءً بما فعل».

---

(١) (الأقتاب): جمع قِتْب، وهي الأمعاء، واندلاقها خروجها بسرعة. «فتح».

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٣٣١ و١٣ / ٤٨)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣ / ٤٣٧ و٤ / ٢٣٧ و٢٣٨)، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب» (٣ / ٩٠).

(٤) «فيض القدير» (٦ / ٢٣٧).

# فصـل

## فيمن بخل بفضل ماله على قريبه أو مولاه

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمَهُ، فَيَسْأَلُهُ فَضْلاً أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَيَبْخَلُ عَلَيْهِ؛ إِلَّا أَخْرَجَ اللهُ لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةً يُقَالُ لَهَا: شُجَاعٌ، يَتَلَمَّظُ[1]، فَيُطَوَّقُ بِهِ»[2].

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَسْأَلُ رَجُلٌ مَوْلَاهُ مِنْ فَضْلٍ هُوَ عِنْدَهُ فَيَمْنَعُهُ إِيَّاهُ؛ إِلَّا دُعِيَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَضْلُهُ الَّذِي مَنَعَهُ شُجَاعاً أَقْرَعَ»[3].

قال أبو داود: «(الأقرع): الذي ذهب شعر رأسه من السّم».

*****

---

(١) (التلمظ): تطعم ما يبقى في الفم من آثار الطعام.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» بإسناد جيد، كذا قال المنذري في «الترغيب» (٢ / ٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٣٩) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٢٤٣٨).

# فصل

## في تمنيهم الموت وطلبهم تخفيف العذاب عنهم وعدم إجابتهم إلى ذلك

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[1].

قال ابن جرير[2]: «﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُم﴾ يقول: لا يخفف عنهم العذاب، وأصل (الفتور) الضعف، و(المبلس) في هذا الموضع هو الآيس من النجاة الذي قد قنط فاستسلم للعذاب والبلاء».

وقال السعدي[3]: «﴿إِنَّ المُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم، ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خَـالِدُونَ﴾ فيه لا يخرجون منه أبداً، و﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُم﴾ العذاب ساعة؛ لا بإزالته ولا بتهوين عذابه، ﴿وهُم فيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم؛ فيقولون: ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّـا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا ولا تُكَلِّمُونِ﴾[4]، وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، ﴿ومَا ظَلَمْنَـاهُم وَلَكِنْ كَانُـوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾؛ فالله لم يظلمهم، ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

---

(١) الزخرف: ٧٤ ـ ٧٧.

(٢) «جامع البيان» (٢٥ / ٥٨).

(٣) «التيسير» (٤ / ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

(٤) المؤمنون: ١٠٧ و١٠٨.

﴿ونَادَوا﴾ وهم في النار لعلهم يحصل لهم استراحة: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾؛ أي: ليميتنا فنستريح؛ فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ لا صبر لنا عليه ولا جلد.

﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم: ﴿إِنَّكُم مَاكِثُونَ﴾؛ أي: مقيمون فيها لا تخرجون منها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم».

*****

وقال سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[1].

قال ابن كثير[2]: «لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[3]؛ سألوا الخزنة ـ وهم كالسجانين لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب؛ فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل، ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾؛ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أم لم تدعوا لا يستجاب لكم، ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب».

---

(١) غافر: ٤٩ و٥٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٨٣).

(٣) المؤمنون: ١٠٨.

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

* * * * *

(١) فاطر: ٣٦ و ٣٧.

# فصل

## في أن الظالمين لا يسليهم كونهم مشتركين في العذاب

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[1].

قال الزمخشري[2]: «﴿أَنَّكُم﴾ في محل الرفع على الفاعلين؛ يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب؛ كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه؛ لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدته وعنائه، وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته.

ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين، وقوله: ﴿أَنَّكُم فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل؛ أي: لن ينفعكم تمنيكم؛ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب؛ كما كنتم مشتركين في سببه، وهو الكفر، وتقوِّيه قراءة من قرأ (إنكم) بالكسر.

وقيل: إذا رأى المَمْنُوُّ بِشِدَّةٍ مَنْ مُنِيَ بمثلها؛ رَوَّحَهُ ذلك وَنَفَّس بعض كربه، وهو التأسي الذي ذكرته الخنساء: أعزي النفس عنه بالتأسي.

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يُرَوِّحُهم لعظم ما هم فيه.

---

(١) الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) «الكشاف» (٣ / ٤٢٠).

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمْتُم﴾؛ قلت: معناه: إذ صح ظلمكم وتبين، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة، و(إذ) بدل من (اليوم)، ونظيره: إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة؛ أي: تبين أني ولد كريمة».

# فصل

## في زيادة حسرتهم برؤيتهم مقعدهم من الجنة لو أحسنوا

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْراً، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً»(١).

# فصل

## في محاولة أهل الندامة الخروج من النار ومنع من استحق الخلود فيها من ذلك

قال الله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٤١٨ - فتح) وغيره.

(٢) المائدة: ٣٧.

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[2].

قال الطبري[3]: «قوله: ﴿وَلَهُم مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ تضرب رؤوسهم بها الخزنة إذا أرادوا الخروج من النار حتى ترجعهم إليها، وقوله: ﴿كُلَّما أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فيها﴾، يقول: كلما أراد هؤلاء الكفار الذين وصف الله صفتهم الخروج من النار مما نالهم من الغم والكرب؛ رُدوا إليها».

قال: «وقد ذُكر أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتُلقي من فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروج؛ فتعيدهم الخُزَّان فيها بالمقامع، ويقولون لهم إذا ضربوهم بالمقامع: ذوقوا عذاب الحريق».

وقال السعدي[4]: «ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾؛ أي: المحرق للقلوب والأبدان».

*****

(١) السجدة: ٢٠.

(٢) الحج: ٢١ و٢٢.

(٣) «جامع البيان» (١٧ / ١٠١).

(٤) «التيسير» (٣ / ٣١٤).

# فصل

## في ظهور الندامة الكبرى
## وانكشاف الحسرة العظمى بذبح الموت بين الجنة والنار

قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

قال الشنقيطي(٢): «(الحسرة): أشد الندم، والتلهف على الشيء الذي فات ولا يمكن تداركه، و(الإنذار): الإعلام المقترن بتهديد؛ أي: أنذر الناس يوم القيامة، وقيل له يوم الحسرة؛ لشدة ندم الكفار فيه على التفريط، وقد يندم فيه المؤمنون على ما كان منهم من التقصير».

وقال السعدي(٣): «(الإنذار): هو الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما يُنذَر به ويُخوَّف به العبادُ يومُ الحسرة حين يُقضى الأمر؛ فيُجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويُسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله واتبع رسله؛ سَعَد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله؛ شَقِيَ شقاء لا يسعد بعده، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!!

فهٰذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هٰذا الأمر العظيم، لا

---

(١) مريم: ٣٩.

(٢) «أضواء البيان» (٤ / ٢٨١).

(٣) «التيسير» (٣ / ٢٠٢ - ٢٠٣).

يخطر بقلوبهم، ولو خطر؛ فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتُهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها ويرجعهم إليه؛ فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن عمل خيراً؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذٰلك؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه» اهـ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ[1]؛ فَيُنَادي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ[2] وَيَنْظُرُونَ؛ فيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذا المَوْتُ ـ وكُلُّهُم قَدْ رَآهُ ـ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذا المَوْتُ ـ وكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ـ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وهٰؤلاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[3].

(وفي رواية متفق عليها) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما:

«فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحاً إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْناً إِلَى حُزْنِهِمْ».

*****

---

(١) (الأملح): المختلط البياض والسواد.

(٢) (اشرأبَّ إلى الشيء): إذا تطلع ينظر إليه ومالت نحوه نفسُه.

(٣) أخرجه البخاري (٨ / ٤٢٨ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٤٩)، وغيرهما.

# فصل

## في أن النار مغلقة على أهل الندامة

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «﴿عَلَيْهِم نارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾؛ أي: مُطْبَقَةٌ عليهم؛ فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها».

وقال ابن قتيبة[4]: «﴿نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾؛ أي: مطبقة مغلقة، يقال: أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقته».

وقوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، قال ابن جزي[5]: «(العمد): جمع عمود، وهو عند سيبويه اسم جمع، وقرىء عُمُد (بضمتين)، والعمود هو المستطيل من حديد أو خشب، والممددة الطويلة، وفي المعنى قولان؛ أحدهما: أن أبواب جهنم أغلقت عليهم، ثم مُدت على أبوابها عُمد تشديداً في الإغلاق والثقاف؛ كما تثقف أبواب البيوت بالعمد، وهو على هذا متعلق بـ (مؤصدة)[6]، والآخر أنهم موثوقون مغلولون في العمد؛ فالمجرور على هذا

---

(١) الهمزة: ٨ و٩. (٢) البلد: ٢٠.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٥٤٨).

(٤) «تفسير غريب القرآن» (ص ٥٢٩).

(٥) «التسهيل» (ص ٨٥٨).

(٦) يعني صفة لها.

في موضع خبر مبتدأ مضمر تقديره: هم موثوقون في عمد[1]» اهـ.

قلت: والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾؛ أي: أرصدنا، ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾؛ أي: سُورها».

قال ابن رجب[4]: «لما كان إحاطة السرادق بهم موجباً لهمهم وغمهم وكربهم وعطشهم؛ لشدة وهج النار عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾».

*****

---

(١) أو أن ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ حال من الضمير المجرور؛ والمعنى: إنها عليهم مؤصدة، موثقين في عمد ممددة؛ كما ذكر بعضهم.

(٢) الكهف: ٢٩.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٨١).

(٤) «التخويف من النار» (ص ٦٧).

# فصل

## في حرمان أهل الندامة رؤية ربهم الكريم تبارك وتعالى

قال الله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

قال ابن رجب[2]: «فذكر الله تعالى ثلاثة أنواع من العذاب: حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخه [إياهم] بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم وهو صدأ الذنوب الذي سود قلوبهم؛ فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا من معرفة الله ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبته، فكما حُجبت قلوبهم في الدنيا عن الله؛ حُجبوا في الآخرة عن رؤيته، وهذا بخلاف حال أهل الجنة».

وقال[2]: «وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل، وإبعادهم عنه، وإعراضه عنهم، وسخطه عليهم، كما أن رضوانَ الله على أهل الجنة أفضلُ من كل نعيم الجنة، وتجليَه لهم ورؤيتَهم إياه أعظمُ من جميع أنواع نعيم الجنة».

**(فائدة)**: اعلم أن سبب العذاب هو المعصية، وسبب المعصية هو الغفلة عن ذكر الله تعالى؛ فالذاكر لله تعالى على وجه الكمال لا يقدم على معصية، وإن كان في معصية؛ أوجب له الذكر تركها، والتوبة إلى الله تعالى منها؛ كما قال سبحانه:

---

(1) المطففين: ١٤ ـ ١٧.

(2) «التخويف من النار» (ص ١٥٣).

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

وتمام «الفائدة»: أنه بقدر الغفلة تكون الحسرة في الآخرة؛ فعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مـا مِنْ ساعَـةٍ تَمُرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذْكُـرِ اللَّهَ فِيها، إِلَّا تَحَسَّرَ عَلَيْها يَوْمَ القِيامَةِ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما مِنْ قَوْمٍ يَقومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرونَ اللهَ فيهِ، إِلَّا قاموا عَنْ مِثْلِ جيفَةِ حِمارٍ، وَكانَ لَهُمْ حَسْرَةً»(٣).

وفي لفظ:

«ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً فَلَـمْ يَذْكُروا اللهَ فيهِ، إِلَّا كانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً(٤)، وَما مِنْ رَجُلٍ مَشى طَريقاً فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ، إِلَّا كانَ عَلَيْهِ تِرَةً، وَما مِنْ رَجُلٍ أَوى إِلى فِراشِهِ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ، إِلَّا كانَ عَلَيْهِ تِرَةً»(٥).

وفي لفظ:

---

(١) آل عمران: ١٣٥.

(٢) أخـرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥ / ٣٦١)، والبيهقي في «الشعب» (رقم ٥١١) وغيرهما، وهو في «صحيح الجامع» (رقم ٥٥٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٥٥) وغيره، وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٧).

(٤) أي: تبعةً وحسرةً وندماً.

(٥) رواه أحمد (٢ / ٤٣٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٧٩)، والحاكم (١ / ٥٥٠) وغيرهم، وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٩).

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»(١).

وفي لفظ:

«مَا قَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَداً لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، إلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلثَّوابِ»(٢).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا»(٣).

قال ابن القيم(٤): إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأيامك وأنفاسك أمداً، ومن كل ما سواه بد ولا بد لك منه.

وقال(٥): قلوب الغافلين معدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة.

وقال (٦): القلب الغافل مأوى الشيطان؛ فإنه وسواس خناس، قد التقم قلب الغافل، يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة، فإذا تذكر وذكر الله؛ انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله، فهو دائماً بين الوسوسة والخنس.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١ / ٤٩٦) وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٤٦٣) وغيره، وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠ / ٩٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥١) وغيرهما، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٥٣٢٢).

(٤) «الفوائد» (ص ١٢٩).

(٥) «مدارج السالكين» (٢ / ٢١٣).

(٦) «مفتاح دار السعادة» (١ / ١١٢).

وفي «التذكرة»[1] لابن الجوزي: إن المعصية إلى الغافل أسرع من انحدار الصخرة إلى المكان السافل.

وفيها[2]:

يَا حَسْرَةَ الغَافِلِ واللَّاهِي    لَا كَانَ مَا يُلْهِي عَنِ اللَّهِ
إِطْرَحِ الدُّنْيَا وأَشْغَالَهَا    لا كَانَ مَا يُلْهِي عَنِ اللَّهِ

وفيها[3]:

يا طُولَ حُزْنِ الغَافِلِينَ    عَنْ ذِكْرِ رَبِّ العَالَمِينا
يَا هَضْمَهُمْ يَوْماً يَرَوْنَ    ثَوَابَ ذِكْرِ الذَّاكِرِينا
سَتَطُولُ حَسْرَتُهُمْ لِما    كَانُوا بِهِ مُتَشَاغِلِينا
يَتَحَسَّرُونَ عَلَى فَوا    تٍ مِنْ فِعَالِ الطَّائِعِينا

*****

---

(١) (ص ٣٦).

(٢) (ص ٥١).

(٣) (ص ١٠٣).

[illegible](١) [illegible]

[illegible]

[illegible](٢):

[illegible]

[illegible]

[illegible](٣):

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * * * *

(١) (ص ٢٣).

(٢) (ص ١٥).

(٣) (ص ٣٠١).

# الباب الخامس

## في بيان فظاعة النار ورصدها أهلها وإنذار الخلائق بها

# فصل

## في فظاعة النار وشدة حرارتها أعاذنا الله والمسلمين منها

قال الله تعالى :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[1] .

قال ابن كثير[2] : «﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ ؛ أي : سأغمره فيها من جميع جهاته ، ثم قال تعالى : ﴿وما أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ ، وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ ؛ أي : تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ، ثم تُبدَّل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون ، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما .

وقوله تعالى : ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ ، قال مجاهد : أي : للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها ، وقال قتادة : ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ ؛ أي : حَرَّاقة للجلد ، وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان .

وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ؛ أي : من مُقَدَّمِي الزبانية ، عظيم

---

(١) المدثر : ٢٦ ـ ٣٠ .

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٤٣) .

خَلْقُهم، غليظ خُلُقهم».

وقال السعدي[1]: «﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾؛ أي: تُلَوِّحُهم وتصليهم في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقَرِّها[2]».

وقال سبحانه:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾[3].

قال ابن جرير[4]: «قوله: ﴿نزَّاعَةً لِلشَّوى﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن لظى أنها تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن، و(الشوى): جمع شواة، وهي من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً، يقال: رمى فأشوى إذا لم يصب مقتلاً؛ فربما وصف الواصفون بذلك جلدة الرأس كما قال الأعشى:

قَالَتْ نُبَيْشَةُ[5] مَا لَهُ     قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَواتُهُ

وربما وصف بذلك الساق كقولهم في صفة الفرس:

عَبْلُ الشَّوى نَهْدُ الجزاره

يعني بذلك قوائمه، وأصل ذلك كله ما وصفت».

وقال ابن كثير[6]: «قوله تعالى: ﴿إنَّها لَظى﴾، يصف النار وشدة حرها، ﴿نزَّاعَةً لِلشَّوى﴾، قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وقال العوفي عن ابن

---

(١) «التيسير» (٥ / ٣٣٤).

(٢) أي: بردها.

(٣) المعارج: ١٥ ـ ١٨.

(٤) «جامع البيان» (٢٩ / ٤٨).

(٥) كذا هي في نسختي من «الطبري»، وفي «اللسان» و«روح المعاني» و«فتح القدير» وغيرها: قتيلة.

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٢١).

عباس: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى﴾؛ الجلود والهام، وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم، وقال سعيد بن جبير: والعصب، وقال أبو صالح: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى﴾؛ يعني: أطراف اليدين والرجلين، وقال أيضاً: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى﴾، لحم الساقين، وقال الحسن البصري وثابت البناني: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى﴾؛ أي: مكارم وجهه، وقال الحسن أيضاً: تحرق كل شيء فيه، ويبقى فؤاده يصيح، وقال قتادة: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾؛ أي: نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه، وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً، وقال ابن زيد: (الشوى): الآراب العظام، فقوله: ﴿نَزَّاعَةً﴾؛ قال: تقطع عظامهم ثم تبدل جلودهم وخَلقهم.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾؛ أي: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها؛ فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلِق ذَلِق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر؛ كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم ـ كما قال الله عز وجل ـ كانوا ممن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾؛ أي: كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾؛ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه، ومنع حق الله منه؛ من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة» اهـ.

وفي «حديث الكسوف» المتفق على صحته قال رسول الله ﷺ:

«وأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ».

وقال سبحانه:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾(١).

(١) الهمزة: ٤ ـ ٧.

و( الحطمة) : الشديدة من النيران ؛ كذا في «القاموس» .

قال ابن جزي[1] : «(الحطمة) : هي جهنم ، وإنما سُمِّيت حطمة ؛ لأنها تَحْطِمُ مَا يُلقى فيها وتلتهبه» اهـ .

وفي «حديث الكسوف» قال رسول الله ﷺ :

«وَلَقَدْ أُريتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً» .

قال النووي[2] : «معنى (يحطم بعضها بعضاً) : لشدة تلهبها واضطرابها كأمواج البحر التي يحطم بعضها بعضاً» .

قال ثابت البناني[3] : «تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ثم يبكي» .

وقال محمد بن كعب : «تأكل كل شيء من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ؛ ترجع على جسده» .

وقال الشوكاني[4] : «﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ ؛ أي : يخلص حرُّها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها ، وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم ؛ لأنها محل العقائد الزائغة ، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها ؛ أي : إنهم في حال من يموت وهم لا يموتون» .

وقال الزمخشري : «يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم ، وتطلع على أفئدتهم ؛ وهي أوساط القلوب ، ولا شيء في بدن

---

(١) «التسهيل» (ص ٨٥٨) .

(٢) «شرح مسلم» (٦ / ٢٠٣) .

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٥٤٨) .

(٤) «فتح القدير» (٥ / ٤٩٤) .

الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذىً يمسه؛ فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه؟!».

وقال السعدي[1]: «﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ﴾؛ أي: ليطرحن ﴿فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾؛ تعظيم لها وتهويل لشأنها، ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة، و﴿التي﴾ من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾؛ أي: تنفذ من الأجساد إلى القلوب، ومع هٰذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها» اهـ.

وتأمل قوله تعالى: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ﴾؛ فأضافها جل وعلا إلى نفسه العظيمة، وكفى بهٰذا تعظيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها؛ فإنه سبحانه وتعالى كما وصف نفسه: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[2].

وكما قال:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[3].

وقال سبحانه:

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[4].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[5].

---

(١) «التيسير» (٥ / ٤٥٥ - ٤٥٦).

(٢) الفجر: ٢٥ و٢٦.

(٣) البروج: ١٢.

(٤) الحجر: ٥٠.

(٥) الإسراء: ٥٧.

قال ابن كثير[1]: «أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه» اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«هٰذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِئَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ»[2].

وعنه رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ:

«إِنَّ نَارَكُمْ هٰذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذٰلِكَ؛ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ»[3].

وقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ؛ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ بِالْقُمْقُمِ»[4].

و(القمقم): ما يُسَخَّن فيه الماء من نحاس وغيره، ويكون ضَيِّق الرأس. «نهاية».

* * * * *

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٣٧٩)، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٦٨٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢ / ٢٤٤) بإسناد صححه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٣٩١)، وهو في «الصحيحين» دون قوله: «وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ...».

(٤) أخرجه البخاري (١١ / ٤١٧ ـ فتح) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، ومسلم (٢١٣) عنه وعن غيره، وأخرجه غيرهما.

# فصل

## في ذكر ريح النار وظلها وشرارها

قال الله تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿فِي سَمُومٍ﴾؛ أي: ريح حارة من حر نار جهنم، تأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، ﴿وحَمِيمٍ﴾؛ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، و﴿ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾؛ أي: لهب نار يختلط بدخان».

وقال الطبري[3]: «﴿وظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وظل من دخان شديد السواد، والعرب تقول لكل شيء وصَفَتْهُ بشدة السواد: أسود يحموم».

وقال الشنقيطي[4]: «قوله: ﴿مِنْ يَحْمُومٍ﴾؛ أي: من دخان أسود شديد السواد، ووزن اليحموم: يفعول، وأصله من الحُمَمِ؛ وهو الفحم، وقيل: من الحَمِّ؛ وهو الشحم المُسْوَد لاحتراقه بالنار».

وقوله تعالى: ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، قال الطبري[5]: «ليس ذلك الظل ببارد كبرد ظلال سائر الأشياء، ولكنه حارٌ؛ لأنه دخان من سعير جهنم، وليس

---

(١) الواقعة: ٤١ ـ ٤٤.

(٢) «التيسير» (٥ / ١٦٤).

(٣) «جامع البيان» (٢٧ / ١١٠).

(٤) «أضواء البيان» (٧ / ٧٧٧).

(٥) «جامع البيان» (٢٧ / ١١١).

بكريم؛ لأنه مؤلمٌ مَنْ استظل به، والعرب تتبع كل منفي عنه صفة حمد نفي الكريم عنه، فتقول: ما هٰذا الطعام بطيب ولا كريم، وما هٰذا اللحم بسمين ولا كريم، وما هٰذه الدار بنظيفة ولا كريمة».

وقال ابن كثير[1]: «﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر» اهـ.

والمقصود أن هناك الهم والغم والحزن والشر الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده؛ كما قال السعدي[2].

وقال تعالى:

﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾؛ قال ابن كثير[4]: «يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾؛ أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾؛ يعني: ولا يقيهم حر اللهب».

وقال السعدي[5]: «﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: إلى ظل نار جهنم التي تتمايز في خلاله ثلاث شعب؛ أي: قطع من النار تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به، ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظل؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿وَلَا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٩٤).

(٢) «التيسير» (٥ / ١٦٤).

(٣) المرسلات: ٣٠ - ٣٣.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٦٠).

(٥) «التيسير» (٥ / ٣٥٦).

يُغْنِي﴾ من مكث فيه ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾، بل اللهب قد أحاط به يمنة ويسرة ومن كل جانب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾، قال ابن رجب[1]: «صح عن ابن مسعود قال: شرر كالقصور والمدائن» اهـ.

فـ (القصر): واحد القصور، و(الجمالة الصفر): الإبل السود، والعرب تشبه الإبل بالقصور المبنية.

وإنما قيل للإبل صفر وهي سود؛ لأن ألوان الإبل سود تضرب إلى الصفرة؛ كذا في «تفسير الطبري»[2].

قلت: فإن كان شررها كالقصر؛ فكيف بوقودها من الحجارة وغيرها؟! وكيف بها هي؟! أعاذنا الله منها ومن عمل يقرب إليها.

وقال تعالى:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[3].

قال ابن قتيبة[4]: «(الشواظ): النار التي لا دخان فيها، و(النحاس): الدخان».

وقال ابن كثير[5]: «قال مجاهد: (النحاس): الصُّفر، يذاب فيصب على رؤوسهم، وكذا قال قتادة».

---

(١) «التخويف من النار» (ص ٨٦).

(٢) انظر: (٢٩ / ١٤٧).

(٣) الرحمٰن: ٣٥.

(٤) «تفسير غريب القرآن» (ص ٤٣٨).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٢٧٤).

وقال الضحاك: «﴿وَنُحَاسٌ﴾ سيل من نحاس» اهـ.

فنسأل الله الكريم برحمته أن يقينا عذاب جهنم، وأن لا يعذبنا بمنّه وكرمه، وندعوه بدعوة عباد الرحمٰن الذين نرجوه تعالى أن نكون منهم؛ فنقول:

﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

وفي «تفسير الطبري»[2]: «﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ يقول: إن عذاب جهنم كان غراماً، مُلِحاً، دائماً، لازماً، غير مفارق مَن عُذِّب به من الكفار، ومهلكاً له[3]، ومنه قولهم: رجل مُغْرَم، من الغُرْم والدَّين، ومنه قيل للغريم: غريم؛ لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه فيه، ومنه قيل للرجل المولع بالنساء: إنه لمغرم بالنساء، وفلان مغرم بفلان، إذا لم يصبر عنه» اهـ.

وليعلم طالب النجاة أن عباد الرحمٰن الذين قالوا هٰذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ...﴾ قد وصفهم الله تعالى قبلها بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا * وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾[4].

ثم وصفهم بعدها بصفات أخر، تُنْبِىء أن النجاة من النار والفوز بالجنان لا يكون بامتطاء راحلة الكسل وركوب بحر التمني، إنما ببذل الجهد في تحقيق الإيمان ولوازمه من الأعمال المرضية للرحمٰن، والله المستعان.

---

(١) الفرقان: ٦٥ و٦٦.

(٢) (١٩ / ٢٣).

(٣) وفي «القاموس»: (الغرام) الولوع، والشر الدائم، والهلاك، والعذاب.

(٤) الفرقان: ٦٣ و٦٤.

# فصل

## في سعة جهنم وبعد قعرها

عن مجاهد؛ قال: قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل، والله ما تدري، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ والسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[1]؛ قال: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال:

«عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ»[2].

ويدل على سعة جهنم عِظم أهلها فيها؛ فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال:

«مَا بَيْنَ مَنْكِبَيِّ الكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ المُسْرِعِ»[3].

وعن أبي هريرة أيضاً، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الكَافِرِ اثْنَانِ وأَرْبَعُونَ ذِراعاً [بِذِرَاعِ الجَبَّارِ][4]، وإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ والمَدِينَةِ»[5].

عن خالد بن عمير العدوي؛ قال: خطبنا عتبة بن غزوان؛ فحمد الله

---

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٤١) وغيره، وهو في «صحيح السنن» برقم (٢٥٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٤١٥ - فتح)، ومسلم (٢٨٥٢).

(٤) أي: جبار من جبابرة الآدميين، ممن كان في القرون الأولى، ممن كان أعظم خلقاً وأطول أعضاء وذراعاً من الناس؛ كذا في «المستدرك» عن شيخ الحاكم أبي بكر بن إسحاق.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٧٧)، والحاكم (٤ / ٥٩٥) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٩٥).

وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن الدنيا قد آذنت[1] بصُرم[2] وولت حَذَّاء[3]، ولم يبق منها إلَّا صُبابة[4] كصبابة الإناء، يتصابُّها[5] صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكر لنا أنَّ الحَجَرَ يُلْقى مِنْ شَفَةِ جهنَّم، فيهوي فِيها سَبْعِينَ عاماً لا يُدْرِكُ لَهَا قَعْراً، وَوَاللّهِ؛ لَتُمْلأَنَّ؛ أفَعَجِبْتُم؟ ولقد ذكر لنا أنَّ ما بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يومٌ وَهُوَ كَظِيظٌ[6] مِنَ الزِّحَام . . . » الحديث[7].

وعن الحسن؛ قال: قال عتبة بن غزوان ـ على منبرنا هٰذا منبر البصرة ـ عن النبي ﷺ؛ قال:

«إِنَّ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ لَتُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ؛ فَتَهْوِي فِيها سَبْعِينَ عاماً، وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرارِها»[8].

قال: وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

ويدل على عظمة جهنم ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال

---

(١) أي: أعلمت.

(٢) أي: بانقطاع وذهاب.

(٣) أي: مسرعة الانقطاع.

(٤) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء.

(٥) يعني: يشربها.

(٦) أي: ممتلئ.

(٧) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) وغيره.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٥٧٥) وهو منقطع؛ لأن الحسن لم يسمع من عتبة؛ كما قال الترمذي، لكن «حديث مسلم» السابق شاهد قوي له، وهو في حكم المرفوع، وإن كان بلفظ: «ذُكر لنا. . .»؛ كذا قال الألباني في «الصحيحة» (٤ / ١٤٥).

رسول الله ﷺ:

«يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَها سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(١).

فعلى هٰذا؛ فإن عدد الملائكة التي تجر جهنم هو أربعة آلاف وتسعمئة ألف ألف (٤,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠) مَلَك.

فلو قدرنا أن إنساناً أراد أن يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله...، بمقدار هٰذا الرقم لا يفتر أبداً؛ لاحتاج من الزمان إلى أكثر من مئة وخمسين سنة!

*****

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) وغيره.

# فصل
## في شكوى النار إلى ربها أن أكل بعضُها بعضاً

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا؛ فَقَالَتْ: يَا رَبِّ! أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً؛ فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَس فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَس فِي الصَّيْفِ؛ فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ[(١)]»[(٢)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ».

وفيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وغيره؛ أنه ﷺ قال:

«الحُمَّى مِنْ فَيْحِ (وفي رواية: مِنْ فَوْرِ) جَهَنَّمَ؛ فَأَبْرِدُوهَا بِالمَاءِ».

و (الفيح): سطوع الحر وفورانه؛ كما في «النهاية».

* * * * *

---

(١) شدة البرد.

(٢) أخرجه البخاري (١٨ / ٢ و٦ / ٣٣٠ ـ فتح)، ومسلم (٦١٧)، وغيرهما.

# فصل

## في الإنذار بالنار وتخويف العباد بها

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

قال السعدي[2]: «أي: يا من منَّ الله عليهم بالإيمان! قوموا بلوازمه وشروطه؛ فـ ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله؛ فلا يَسْلَمُ العبدُ إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف؛ ليزجر عباده عن التهاون بأمره؛ فقال: ﴿**وَقودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ**﴾؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾[3].

﴿**عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ**﴾؛ أي: غليظة أخلاقهم، شديد انتصارهم، يُفزِعون بأصواتهم، ويزعجون بمرآهم، ويُهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون فيهم أمر الله الذي حتَّم عليهم بالعذاب، وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿**لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾».

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) «التيسير» (٥ / ٢٦٩ - ٢٧٠).

(٣) الأنبياء: ٩٨.

وقال ابن كثير[1]: «﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: طباعهم غليظة، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شِدَادٌ﴾؛ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج.

وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادرون إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله، ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية، عياذاً بالله منهم».

وقال تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾؛ أي: تتوهج وتتوقد، كلما سكن لهبها زيد في وقودها وسعيرها، ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ﴾؛ أي: كذب بالخبر بقلبه، ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن العمل بجوارحه.

قال الطبري[3]: «﴿فَأَنْذَرْتُكُم نَاراً تَلَظَّى﴾ يقول تعالى ذكره: فأنذرتكم أيها الناس ناراً تتوهج وهي نار جهنم، يقول: احذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا وتكفروا به، فتصلوها في الآخرة، وقيل: ﴿تَلَظَّى﴾ وإنما هي تتلظى، وهي في موضع رفع؛ لأنه فعل مستقبل، ولو كان فعلاً ماضياً لقيل: فأنذرتكم ناراً تلظت».

وقال تعالى:

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٣٩١).

(٢) الليل: ١٤ ـ ١٦.

(٣) «جامع البيان» (٣٠ / ١٤٥).

﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[1].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ»؛ فما زال يقولها حتى لو كان في مقامي هٰذا لسمعه أهل السوق، وحتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه[2].

وقال تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[3].

قال الشوكاني[4]: «﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار؛ أي: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم».

وقال ابن جزي[5]: «﴿ظُلَلٌ﴾: جمع ظُلَّة بالضم، وهو ما غَشَّى من فوق؛ كالسقف».

وقوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾، قال الزمخشري[6]: «﴿ذٰلِكَ﴾ العذاب هو الذي يتوعد الله ﴿بِهِ عِبَادَهُ﴾ ويخوفهم ليجتنبوا ما يوقعهم فيه، ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي،

---

(1) النبأ: ٤٠.

(2) أخرجه الدارمي (٢ / ٣٢٩) «باب في تحذير النار»، وقال الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٦٨٧): «إسناده صحيح».

(3) الزمر: ١٦.

(4) «فتح القدير» (٤ / ٤٥٥).

(5) (ص ٦٢٣).

(6) «الكشاف» (٣ / ٣٤٢).

وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة».

وقال الله تعالى:

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾[1].

أي: أن النار أعظم الكُبَر إنذاراً، أو كَبُرَتْ مُنْذِرَةً[2].

قال النظام النيسابوري: «قال أهل المعاني: أراد أنها من بين الدواهي واحدة في العِظَم لا نظير لها» اهـ.

وقال الحسن رحمه الله[3]: «والله ما أُنذرت الخلائق بشيء أفظع منها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[4]، دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا؛ فعم وخص، فقال:

«يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا[5]»[6].

---

(١) المدثر: ٣٥ و٣٦. (٢) انظر: «محاسن التأويل» (١٦ / ٣٤٢).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٩ / ٨٥).

(٤) الشعراء: ٢١٤.

(٥) يعني: سأصلها، ومنه حديث: «بُلُّوا أَرْحَامَكُم وَلَوْ بِالسَّلَامِ».

قال في «النهاية»: «أي: ندّوها بصلتها، وهم يُطلقون النَّداوة على الصِّلة؛ كما يطلقون اليُبْس على القطيعة».

(٦) أخرجه مسلم (٢٠٤) وغيره.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ:

«اتَّقُوا النَّارَ»، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ»، ثم أعرض وأشاح - ثلاثاً -، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؛ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ؛ نَامَ هَارِبُهَا. . .» الحديث(٢).

قال المناوي(٣): «يعني: النار شديدة، والخائفون منها نائمون غافلون، وليس هٰذا طريق الهارب، بل طريقه أن يهرول من المعاصي إلى الطاعات، وفيه معنى التعجب؛ أي: ما أعجب حال النار الموصوفة بشدة الأهوال، وحال الهارب منها مع نومه وشدة غفلته والاسترسال في سكرته!».

ولأبي العتاهية(٤):

أَيُّهَا المُزْمِعُ الرَّحِيلَ عَنِ الدُّنْـ ـيَا تَزَوَّدْ لِذَاكَ مِنْ خَيْرِ زَادِ
لَتَنَالَنْكَ اللَّيَالِي وَشِيكاً بِالمَنَايَا فَكُنْ على اسْتِعْدَادِ
أَتَنَاسَيْتَ أَمْ نَسِيتَ المَنَايَا أَنَسِيتَ الفِرَاقَ لِلأَوْلَادِ
أَنَسِيتَ إِذْ أَنْتَ فِيهَا بَيْنَ ذُلٍّ وَوَحْشَةٍ وَانْفِرَادِ
أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ السِّبَاقِ وَإِذْ أَنْـ ـتَ تُنَادَى فَمَا تُجِيبُ المُنَادِي

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٤٠٠ - فتح)، وفي مواضع أخرى، وهٰذا لفظه، ومسلم (١٠١٦)، والنسائي (٥ / ٧٤)، ولفظه مقارب للبخاري.

(٢) وتمامه: «ولاَ مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُها»، أخرجه الترمذي (٢٦٠١) وغيره، وحسنه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (٩٥٣).

(٣) «فيض القدير» (٥ / ٤٤٦).

(٤) «ديوانه» (ص ٧٦ - ٧٧).

أيُّ يومٍ يَوْمُ الفِراقِ وإذْ نَفْـ ... ـسُكَ تَرْقى عَنِ الحَشا والفُؤادِ
أيُّ يومٍ يَوْمُ الفِراقِ وإذْ أنْـ ... ـتَ مِنَ النَزْعِ في أشَدِّ الجِهادِ
أيُّ يومٍ يَوْمُ الصُّراخِ وإذْ يَلْـ ... ـطِمْنَ حُرَّ الوُجُوهِ والأسَادِ
باكِياتٍ عَلَيْكَ يَنْدُبْنَ شَجْواً ... خافِقاتِ القُلُوبِ والأكْبادِ
يَتَجاوَبْنَ بالرَّنينِ ويَذْرِفْـ ... ـنَ دُمُوعاً تَفيضُ فَيْضَ المَزادِ
أيُّ يومٍ نَسيتَ يَوْمَ التَّلاقي ... أيُّ يومٍ نَسيتَ يَوْمَ المَعادِ
أيُّ يومٍ يَوْمُ الوُقُوفِ إلى اللـ ... ـهِ ويَوْمُ الحِسابِ والأشْهادِ
أيُّ يومٍ يَوْمُ المَمَرِّ عَلى النّا ... رِ وأهْوالِها العِظامِ الشِّدادِ
أيُّ يومٍ يَوْمُ الخَلاصِ مِنَ النّا ... رِ وَهَوْلِ العَذابِ والأصْفادِ
كَمْ وكَمْ في القُبُورِ مِنْ أهْلِ مُلْكٍ ... كَمْ وكَمْ في القُبُورِ مِنْ قُوّادِ
كَمْ وكَمْ في القُبُورِ مِنْ أهْلِ دُنْيا ... كَمْ وكَمْ في القُبُورِ مِنْ زُهّادِ
لَوْ بَذَلْتُ النُّصْحَ الصَّحيحَ لِنَفْسي ... لَمْ تَذُقْ مُقْلَتايَ طَعْمَ الرُّقادِ
لَوْ بَذَلْتُ النُّصْحَ الصَّحيحَ لِنَفْسي ... هِمْتُ أخرى الزَّمانِ في كُلِّ وادِ
بُؤسَ لي بُؤسَ مَيِّتاً يَوْمَ أبْكى ... بَيْنَ أهْلي وحاضِرِ العُوّادِ
كَيْفَ ألْهو وكَيْفَ أسْلو وأنْسَى م ... المَوْتَ والمَوْتُ رائِحٌ ثُمَّ غادِ
يا طَويلَ الرُّقادِ لَوْ كُنْتَ تَدْري ... كُنْتَ مَيْتَ الرُّقادِ حَيَّ السُّهادِ

* * * *

# فصل

## في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً . . .﴾

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[1].

قال الطبري[2]: «يعني تعالى ذكره بقوله: [﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾]: إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا يُكَذِّبُون في الدنيا بها، وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدقين بها، ومعنى الكلام إن جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصدهم».

ثم روى عن الحسن أنه كان إذا تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾؛ قال: «ألا إن على الباب الرصد، فمن جاء بجواز؛ جاز، ومن لم يجىء بجواز؛ احْتُبِس».

ورَوى عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾؛ قال: «لا يدخل الجنة أحد حتى يجتاز النار».

ورَوى عن قتادة: «﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ يُعْلِمُنا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى يقطع النار».

وقال ابن كثير[3]: «﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾؛ أي: مُرْصَدة مُعَدَّة».

وقال القرطبي[4]: «معدة مترصدة، متفعّل من الرصد، وهو التَّرَقُّب؛ أي:

---

(١) النبأ: ٢١ و٢٢.

(٢) «جامع البيان» (٣٠ / ٧٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٦٣).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩ / ١٧٥).

هي متطلعة لمن يأتي، والمِرصاد: مِفعال من أبنية المبالغة؛ كالمِعطار والمِغيار؛ فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار».

وقال الشوكاني[1]: «معنى الآية أن جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضعَ رصد، يرصد فيه خزنةُ النار الكفارَ ليعذبوهم فيها، أو هي في نفسها متطلعة لمن يأتي إليها من الكفار؛ كما يتطلع الرصد لمن يمر به ويأتي إليه» اهـ.

وقوله تعالى: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾، قال ابن كثير[2]: «﴿لِلطَّاغِينَ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل، ﴿مَآباً﴾؛ أي: مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً».

وللألبيري[3]:

وَيْلٌ لأَهْلِ النَّارِ في النَّارِ ... مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَنْقَدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِم ... كَمِرْجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ
فَيَسْتَغِيثُونَ لِكَيْ يُعْتَبُوا ... أَلاَ لَعاً[4] مِنْ عَثْرَةِ النَّارِ
وَكُلُّهُم مُعْتَرِفٌ نَادِمٌ ... لَوْ تُقْبَلُ التَّوْبَةُ فِي النَّارِ
يَهْوِي بِهَا الأَشْقَى عَلَى رَأْسِهِ ... فَالوَيْلُ لِلأَشْقَى مِنَ النَّارِ
وَكُلَّمَا رَامَ فِرَاراً بِهَا ... فَرَّ مِنَ النَّارِ إِلَى النَّارِ
لاَ رَاحَةً فِيهَا وَلاَ فَتْرَةً ... هَيْهَاتَ لاَ رَاحَةَ فِي النَّارِ
أَنْفَاسُهَا مُطْبَقَةٌ فَوْقَهُم ... وَهَكَذَا الأَنْفَاسُ فِي النَّارِ
سُبْحَانَ مَنْ يُمْسِكُ أَرْوَاحَهُم ... فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ فِي النَّارِ

(١) «فتح القدير» (٥ / ٣٦٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٦٣).

(٣) «ديوانه» (٨٥ - ٨٧).

(٤) (لَعْ): كلمة تقال للعاثر، مرة أو مرتين، ومعناها: أقالك الله من عثرتك، والمعنى هنا: ألا إقالة من عثرة النار.

طُوبَى لِمَنْ فَازَ بِدَارِ التُّقَى ... وَلَمْ يَكُنْ مِنْ حَصَبِ النَّارِ
وَوَيْلُ مَنْ عَمَّرَ دَهْراً وَلَمْ ... يُرْحَمْ وَلَمْ يُعْتَقْ مِنَ النَّارِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا حِذْرَكُمْ ... وَحَصِّنُوا الجُنَّةَ لِلنَّارِ
فَإِنَّهَا مِنْ شَرِّ أَعْدَائِكُمْ ... مَا فِي العِدَا أَعْدَى مِنَ النَّارِ
وَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ مَوْلَاكُمُ ... فَذِكْرُهُ يُنْجِي مِنَ النَّارِ
وَاعَجَباً مِنْ مَرِحٍ لَاعِبٍ ... يَلْهُو وَلَا يَحْفَلُ بِالنَّارِ
يُوقِنُ بِالنَّارِ وَلَا يَرْعَوِي ... كَأَنَّهُ يَرْتَابُ فِي النَّارِ
وَهُوَ بِهَا فِي خَطَرٍ بَيِّنٍ ... لَوْ كَاسَ مَا خَاطَرَ بِالنَّارِ
إِنَّ الأَلِبَّاءَ هُمْ قِلَّةٌ ... فَرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ النَّارِ
وَطَلَّقُوا الدُّنْيَا بَتَاتاً وَلَمْ ... يُلْوُوا عَلَيْهَا حَذَرَ النَّارِ
وَأَبْصَرُوا مِنْ عَيْبِهَا أَنَّهَا ... فَتَّانَةٌ تَدْعُو إِلَى النَّارِ
فَطَابَتِ الأَنْفُسُ مِنْهُمْ بِأَنْ ... أَمَّنَهُمْ مِنْ فَزَعِ النَّارِ
وَاللهِ لَوْ أَعْقِلُ لَمْ تَكْتَحِلْ ... بِالنَّوْمِ عَيْنِي خِيفَةَ النَّارِ
وَلَا رَقَا دَمْعِي وَلَا عِلْمَ لِي ... أَنِّيَ فِي أَمْنٍ مِنَ النَّارِ
وَلَمْ أُرِدْ مَاءً وَلَا سَاغَ لِي ... إِذَا ذَكَرْتُ المُهْلَ فِي النَّارِ
وَلَمْ أَجِدْ لَذَّةَ طَعْمٍ إِذَا ... فَكَّرْتُ فِي الزَّقُّومِ فِي النَّارِ
أَيُّ التِذَاذٍ بِنَعِيمٍ إِذَا ... أَدَّى إِلَى الشِّقْوَةِ فِي النَّارِ
أَمْ أَيُّ خَيْرٍ فِي سُرُورٍ إِذَا ... أَعْقَبَ طُولَ الحُزْنِ فِي النَّارِ
فَفَكِّرُوا فِي هَوْلِهَا وَاحْذَرُوا ... مَا حَذَّرَ اللهُ مِنَ النَّارِ
فَإِنَّهَا رَاصِدَةٌ أَهْلَهَا ... تَدُعُّهُمُ دَعّاً إِلَى النَّارِ
فَلَيْسَ مِثْلِي طَالِباً حِبَّةً ... إِلَّا المُعَافَاةَ مِنَ النَّارِ
وَطَالَمَا اسْتَرْحَمْتُهُ ضَارِعاً ... يَا رَبِّ حَرِّمْنِي عَلَى النَّارِ
فَأَنْتَ مَوْلَايَ وَلَا رَبَّ لِي ... غَيْرُكَ أَعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ
وَلَمْ تَزَلْ تَسْمَعُنِي قَائِلاً ... أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ

# خَاتِمَة

فهٰذا يا أخي! حال العصاة وندمُهم، وتمنيهم الرجعة عند احتضارهم، وفي قبورهم، وعند نشورهم، وفي موقفهم بين يدي العزيز الجبار، ثم إذا عرضوا على النار ورأوها عياناً.

وفي هٰذه الحال يشتد ندمهم، ويعظم كربهم، ويتأكد طلبهم الرجعة إلى الدنيا؛ لإصلاح ما أفسدوه، واستدراك ما فرطوا فيه.

ثم الداهية العظمى إذا ألقوا في النار، وغمروا فيها، ولفحت وجوههم، وتَغَشَّاهُم عذابها من جميع جهاتهم؛ فأي حال أسوأ من هٰذا الحال، وأي خزي أعظم من هٰذا الخزي؟!

فانظر يا أخي! فيما أمامك من الأهوال، وتوهم ذٰلك بقلبك، وأطل فيه فكرك، فإنّ أسلم الناس منها من طال فيها فكره في الدنيا حتى أورثه الفكر ـ بإذن الله تعالى ـ خوفاً يعين على الطاعة، ويحجز عن المحارم، فمن كان كذٰلك؛ أمن في الآخرة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يجمع على عبده خوفين؛ كما قال رسول الله ﷺ:

«قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي؛ لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ، إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي»(1).

(1) أخرجه البزار (٣٢٣٢ ـ كشف الأستار) مرسلاً، و(٣٢٣٣) مسنداً، وقال الهيثمي في =

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[2].

فالمتقون آمنون في الآخرة، وأصل التقوى لله تعالى؛ هو الخوف منه جل وعلا، فأثابهم الأمن عوضاً عن خوفهم في الدنيا من عقابه جل وعلا، والجزاء من جنس العمل.

هٰذا بالإضافة إلى ما لهم من البشرى في الدنيا والآخرة[3]؛ كما قال سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4].

---

= «المجمع» (١٠ / ٣٠٨): «رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمر بن علقمة وهو حسن الحديث».

قال الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٣٧٨): «فالمسند ضعيف لجهالة محمد بن يحيى بن ميمون، ولكنه يتقوى بمرسل الحسن البصري؛ لأنه من غير طريقه؛ فيرتقي إلى درجة الحسن إن شاء الله تعالى».

(١) الحجر: ٤٥ و٤٦.

(٢) الدخان: ٥١.

(٣) لمعرفة ما أعده الله تعالى من البشرى لعباده المتقين؛ انظر كتابي: «بشرى المتقين في الحياة الدنيا وفي الآخرة».

(٤) يونس: ٦٢ - ٦٤.

وعند الموت تتنزل عليهم الملائكة مبشرين لهم بالجنة ؛ كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (١).

وقال سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ ؛ قال :

«المَيِّتُ تَحْضُرُهُ المَلائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحاً؛ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيرِ غَضْبَانٍ؛ فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هذا؟ فَيَقُولُونَ: فُلانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَباً بالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . . .» الحديث (٣).

وعنه رضي الله عنه ؛ أن النبي ﷺ قال :

---

(١) فصلت : ٣٠ - ٣٢.

(٢) النحل : ٣١ و ٣٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢)، وأحمد (٢ / ٣٦٤ - ٣٦٥ و٦ / ١٤٠)، وحسن سنده الألباني في «تخريج المشكاة» (رقم ١٦٢٨).

«إذا حُضِرَ المُؤمنُ؛ أَتَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضاءَ، فَيَقولونَ: اخْرُجي راضِيَةً مَرْضِيّاً عَنْكِ إِلى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبانٍ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ المِسْكِ، حَتّى أَنَّهُ لَيُناوِلُهُ بَعْضُهُم بَعْضاً [يَشُمُّونَهُ]، حَتّى يَأْتونَ بِهِ بابَ السَّماءِ؛ فَيَقولونَ: ما أَطْيَبَ هٰذِهِ الرِّيحَ الَّتي جاءَتْكُمْ مِنَ الأَرْضِ، فَيَأْتونَ بِهِ أَرْواحَ المُؤْمِنينَ؛ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحاً بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلونَهُ ماذا فَعَلَ فُلانٌ؟ ماذا فَعَلَ فُلانٌ؟ فَيَقولونَ: دَعُوهُ؛ فَإِنَّهُ كانَ في غَمِّ الدُّنْيا، فَإِذا قالَ: أَمَا أَتاكُم؟ قالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلى أُمِّهِ الهاوِيَةِ...» الحديث(١).

وإذا حملت جنازة أحدهم قال لعظيم فرحه بما هو قادم عليه: «قَدِّموني قَدِّموني»(٢).

وإذا قبر فُسح له في قبره سبعون ذراعاً، ونُوِّر له فيه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذا قُبِرَ المَيِّتُ (أو قال: أَحَدُكُمْ) أَتاهُ مَلَكانِ أَسْوَدانِ أَزْرَقانِ يُقالُ لأَحَدِهِما المُنْكَرُ والآخَرُ النَّكيرُ، فَيَقُولانِ: ما كُنْتَ تَقولُ في هٰذا الرَّجُلِ؟ فَيَقولُ ما كانَ يَقولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقولُ هٰذا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ سَبْعونَ ذِراعاً في سَبْعينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فيهِ، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقولُ: أَرْجِعُ إِلى أَهْلي فَأُخْبِرُهُمْ؟ فَيَقُولونَ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَروسِ الَّذي لا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتّى يَبْعَثَهُ اللهُ

---

(١) أخرجه النسائي (٤ / ٨ - ٩) وهٰذا لفظه، وابن حبان (٧٣٣ - موارد)، والحاكم (١ / ٣٥٢ - ٣٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٢٩٤)، وزيادة «يشمُّونَه» لابن حبان والحاكم.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم في الباب الأول (ص ٣٦).

مِنْ مَضْجَعِهِ ذٰلِكَ . . . » الحديث[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال نبي الله ﷺ:

«إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم، قال: يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدانِه؛ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذَا الرَّجُلِ؟ قال: فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، قال: فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الجَنَّةِ»، قال نبي الله ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً».

قال قتادة ـ وهو الراوي عن أنس ـ: «وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويُملأ عليه خَضِراً إلى يوم يبعثون»[2].

وعند الفزع الأكبر ينجون من الأهوال والمخاوف والأحزان، ويُبشرون بالجنان؛ كما قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[3].

وكذٰلك يهنؤون عندما يؤتون كتبهم بأيمانهم، وتكاد أفئدتهم تطير فرحاً، قال سبحانه:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وغيره، وجوَّد إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ـ فتح)، ومسلم (٢٨٧٠) وهٰذا لفظه، وغيرهما.

(٣) الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣.

﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾(١).

ثم إذا كانوا على الصراط سعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وبُشّروا بالنعيم المقيم والفوز العظيم؛ كما قال سبحانه:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

ثم تعظم فرحتهم عند تقريب الجنة لهم مزخرفة مزينة، قال الله تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾(٣).

قال السعدي(٤): «وإنما أزلفت وقربت لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك كبيره وصغيره، الممتثلين لأوامر ربهم المنقادين له.

ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿هٰذا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾؛ أي: هٰذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أواب؛ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات بذكره وحبه والاستعانة به ودعائه وخوفه ورجائه، ﴿حَفِيظٍ﴾؛ أي: محافظ على ما أمر الله به، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتم الوجوه، حفيظ لحدوده» اهـ.

ويزداد فرحهم وسرورهم وغبطتهم إذا دخلوا الجنة الفيحاء، ورأوا بأعينهم رياضها الناضرة، ودخلوا قصورها العالية، فشاهدوا أنوارها، وعانقوا أبكارها، وباشروا ما فيها من أصناف الملذات، وفنون الشهوات، قال الله تعالى:

---

(١) الحاقة: ١٩ - ٢٤.

(٢) الحديد: ١٢.

(٣) ق: ٣١ و٣٢.

(٤) «التيسير» (٥ / ٨٦ - ٨٧).

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[1].

قال السعدي[2]: «﴿تُحْبَرُون﴾؛ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿يُطافُ عَلَيْهم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وأَكْوابٍ﴾؛ أي: تدُور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها؛ وهي صحاف الذهب، وشرابهم بألطف الأواني؛ وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وفِيها﴾؛ أي: الجنة ﴿ما تشْتهِيهِ الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ﴾، وهذا اللفظ جامع يأتي على كل نعيم وفرح وقرة عين وسرور قلب، فكل ما تشتهيه النفوس من مطاعم ومشارب وملابس ومناكح، وما تَلَذُّه العيون من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم مونقة، ومبان مزخرفة؛ فإنه حاصل فيها مُعَدٌّ لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيها فَاكِهَةٌ ولَهُمْ ما يَدَّعُونَ﴾[3].

﴿وأَنْتُم فِيهـا خَالِـدُون﴾، وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه» اهـ.

---

(١) الزخرف: ٦٨ - ٧٣.

(٢) «التيسير» (٤ / ٤٥٦).

(٣) يس: ٥٧.

هذا ؛ و «فِي الجَنةِ ما لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1] .

ويبلغ الفرح منتهاه إذا سلم الله تعالى عليهم ؛ فسمعوا صوته ، وتنعموا بخطابه ، وكشف الحجاب عن وجهه الكريم ؛ فرأوه عِياناً ، ورضي عنهم ، وأعطاهم مناهم ؛ كما قال سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[2] .

وقال عز وجل :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3] .

قال ابن كثير[4] : «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ من النَّضارة ؛ أي : حسنة بهية مشرقة مسرورة ، ﴿إِلَى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ ؛ أي : تراه عِياناً» .

وقال سبحانه :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[5] .

عن صهيب رضي الله عنه ؛ قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : «﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيادَةٌ﴾ ، وقال :

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦ / ٣١٨ و٨ / ٥١٥ و١٣ / ٤٦٥ ـ فتح) ، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤) وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ . . .» الحديث .

(٢) الأحزاب : ٤٤ .

(٣) القيامة : ٢٢ و٢٣ .

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٤٥٠) .

(٥) يونس : ٢٦ .

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ؛ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ؛ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ (يَعْنِي: إِلَيْهِ) وَلَا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ»[1].

وقال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

قال السعدي[3]: «﴿ورضوانٌ مِنَ الله﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أكبر﴾ مما هم فيه من النعيم؛ فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون؛ فرضا رب الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنات».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ؛ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً فَأَزِيدَكُم؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا! وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا؟ قَالَ: يَقُولُ: رِضْوَانِي أَكْبَرُ»[4].

وتمام نعيمهم أن ما هم فيه لا ينقطع أبداً، ولا يمتنع سرمداً ـ كما تقدم ـ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧) بلفظه، وغيرهم.

(٢) التوبة: ٧٢.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٢ / ٢٦٦).

(٤) أخرجه الحاكم (١ / ٨٢) وغيره، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ٣٢٤).

ثم أنهم لا يملونه، ولا يطلبون الانتقال عنه، ولا يتمنون سواه؛ كما قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[1].

وكيف يبغون عنها حولاً، وهم فيها في أكمل نضرة وحبور، وأعظم بهجة وسرور، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه؟! فأي خير أعظم من هٰذا، وأي سعادة فوقه؟!

فحُق للعاقل أن يزهد في الدنيا الفانية أجْلَ هٰذا النعيم، وأن ينتهب ساعات العمر في تحصيله:

﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[2].

و﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾[3].

قال السعدي[4]: «فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار؛ فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!» اهـ.

فنسأل الله عز وجل أن لا يحرمنا ما عنده من الخير الكثير بشر ما عندنا من الغفلة والتقصير.

---

(١) الكهف: ١٠٧ و١٠٨.

(٢) المطففين: ٢٦.

(٣) الصافات: ٦١.

(٤) «التيسير» (٤ / ٢٦١)

ونسأله أن يمنَّ علينا بشرف طاعته، ورعاية حقوقه، ويلهمَنا الاستجابة لأمره، والإنابة إليه، من قبل أن يفاجئنا الموت؛ فنكون من أهل الندامة.

وقد أمرنا الله تعالى بالاستجابة له؛ حاثّاً لنا على المبادرة بالخيرات، وعدم التسويف بالطاعات، محذراً إيانا من مجيء يوم القيامة؛ يوم الحسرة والندامة، الذي إذا جاء وقته لا يمكن رده، وليس للعبد فيه مَلجأ يلجأ إليه، فيهرب من سخط الله وعذابه، وليس له نكير لما اقترفه وأجرمه؛ فقال جل ثناؤه:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾[1].

وقال ـ وهو أرحم الراحمين ـ مخاطباً مَن آمن به وبما أعده لأهل السعادة وأهل الندامة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[2].

قال ابن كثير[3]: «أي: توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات».

وقال ابن القيم[4]: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

**الأول**: تعميم جميع الذنوب، واستغراقها بها؛ بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

**والثاني**: إجماع العزم والصدق بكليته عليها؛ بحيث لا يبقى عنده تردد

---

(١) الشورى: ٤٧.

(٢) التحريم: ٨.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٣٩١).

(٤) «مدارج السالكين» (١ / ٣١٠).

ولا تلوّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

**الثالث**: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه.

فنصح التوبة: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة».

وفي «اللطائف»: «التوبةَ التوبةَ قبل أن يصل إليكم من الموت النوبة، فيحصل المُفَرِّط على الندم والخيبة، الإنابةَ الإنابةَ قبل غلق باب الإجابة، الإفاقةَ الإفاقةَ؛ فقد قرب وقت الفاقة، ما أحسنَ قلقَ التَّوَّاب! ما أحلى قدومَ الغُيَّاب! ما أجملَ وقوفَهم بالباب!

يَا نَدَامَايَ صَحَا الْقَلْبُ صَحَا ... فَاطْرُدُوا عَنِّي الصِّبَا والمَرَحَا
زَجَرَ الوَعْظُ فُؤَادِي فَارْعَوَى ... وَأَفَاقَ القَلْبُ مِنِّي وَصَحَا
هَزَمَ العَزْمُ جُنُوداً لِلْهَوَى ... فَاسدى لَا تَعْجَبُوا إِنْ صَلَحَا
بَادِرُوا التَّوْبَةَ مِنْ قَبْلِ الرَّدَى ... فَمُنَادِيهِ يُنَادِينَا الْوَحَا

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

**محمد شومان**

# الفهرس


٥ المقدمة، وفيها بيان غفلة أكثر الناس عمّا خُلقوا له، واغترارهم بشهوات الدنيا الزائلة، وطريق الخروج من ذلك، **وفائدة هامة، وفهرس مجمل** لمحتويات الكتاب.

١٩ **الباب الأول: في فظاعة حال أهل الندامة عند الموت.**

٢١ **فصل** في طلب العصاة عند الموت الرجعة لعمل الصالحات.

٢٤ **فصل** وفيه التحذير من فتنة المال والولد.

٢٨ **فصل** في شدة نزع روح الفاجر، وتوبيخ الملائكة إياه، ولعنه، وتبشيره بسخط الله تعالى وغضبه وعذابه؛ من حميم وغساق وغير ذلك.

٣١ **فصل** في ضرب الملائكة وجوه الكافرين وأدبارهم، وتبشيرهم بعذاب الحريق.

٣٤ **فصل** في أن المجرمين لا بشرى لهم؛ إلا بالنار وغضب الجبار.

٣٦ **فصل** في دعاء الفاجر على نفسه بالويل عند حمل جنازته.

٣٩ **الباب الثاني: في شدة عذاب أهل الندامة في القبر.**

٤١ **فصل** في طرح روح الفاجر من السماء، وشدة ما يلاقيه في القبر من الأهوال والفزعات.

٤٩ **فصل** في عذاب من لا يستبرىء من البول، وعذاب النمّام، والمغتاب. **وفيه تنبيه وفائدة.**

٥٣ فصل في عذاب من ينام عن الصلاة المكتوبة، ومن يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق، وعذاب الزناة والزواني، وعذاب أَكَلة الربا.
٥٧ فصل في عذاب الذين يفطرون قبل تحلة صومهم، وعذاب من يمنعن أولادهن ألبانهن، وبيان حال الزناة والزواني، وحال قتلى الكفار.
٥٨ فصل في عذاب المتبختر في مشيته.
٥٩ فصل في عذاب الخطباء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم. وفيه نصيحة لطلبة العلم، والتأكيد على الإخلاص وتزكية النفس.
٦٥ **الباب الثالث: في حال أهل الندامة من حين النفخ في الصور إلى وقت إلقائهم في النار، وذكر الصراط وهوله، وذكر القنطرة بين الجنة والنار.**
٦٧ فصل في حالهم عند النفخ في الصور والخروج من القبور.
٧٢ فصل في هول الأمر إذا فزعوا وفظاعته.
٧٤ فصل في شدة كربهم وامتلاء قلوبهم بالخوف والحزن والغم والهم.
٧٧ فصل في حشر المجرمين يوم القيامة زرقاً.
٧٨ فصل في حشر المتكبرين أذلاء حقيرين.
٧٩ فصل في تصغير المرائي وتحقيره يوم القيامة.
وفيه ذكر شأن الإخلاص وما يسهله على العبد.
٨٤ فصل في عذاب من لا يخرج الحق الواجب من ماله.
٨٨ فصل في عذاب النائحة إذا لم تتب.
٨٩ فصل في عذاب من لبس ثوب شهرة.
٨٩ فصل في عذاب من أكل برجل مسلم أكلة...
٩٠ فصل في حسرة أهل الندامة على ما فرَّطوا في أمر الساعة.
٩٣ فصل في ذهاب الأنساب يوم القيامة، وتقطع الأسباب، وعداوة الأصحاب، وفرار المرء من أخيه وأمه وأبيه.

٩٧ فصل وفيه الحث على الندم والتوبة قبل فوات الأوان.
٩٩ فصل في قيام الناس لرب العالمين.
١٠١ فصل في عرض أهل الندامة على الرب جل وعلا، وهول موقفهم بين يديه.
وفيه ذكر أعظم الأمور المعينة على التجهز للقاء الله تعالى.
١٠٦ فصل في أول ما يحاسب عليه العبد.
١٠٨ فصل في حسرتهم ودعائهم على أنفسهم بالثبور عند أخذهم كتبهم بالشمائل وراء الظهور، وعند المحاسبة ونصب الموازين.
١١٨ فصل في خسران أهل الندامة أنفسهم إذا خفّت موازينهم.
١٢٦ فصل في إفلاسهم إذا اجتمعت عليهم الخصوم.
١٢٩ فصل في أن المجاهد يأخذ ما شاء من حسنات من خانه في أهله.
١٣٠ فصل في حشر أهل الندامة على وجوههم عمياً وصمّاً وبكماً.
١٣٣ فصل في تخلي شركاء أهل الندامة عنهم.
١٣٥ فصل في أنهم ليس لهم يوم القيامة حميم ولا شفيع.
١٣٦ فصل في عجز أهل الندامة عن فداء أنفسهم من عذاب الله تعالى.
١٤١ فصل في حالهم عند رؤية جهنم إياهم وعرضها عليهم.
١٤٦ فصل في إحضار المكذبين حول جهنم جثياً.
١٤٧ فصل في عرض أهل الندامة على النار، واجتماع الحسرات عليهم عند معاينتها، وطلبهم المرد إلى الدنيا لاسترضاء الرب جلّ وعلا.
وفيه الحث على اليقظة من نوم الغفلة، والتوبة إلى الله تعالى، والتحذير من القنوط من رحمته.
١٥٦ فصل في مقدار لبث أهل الندامة في الدنيا ـ في أعينهم ـ إذا رأوا العذاب.

١٥٧ فصل في تيقن المجرمين أنْ لا معدل لهم عن النار.
١٥٨ فصل في سوق أهل الندامة إلى النار على وجوههم عطاشاً، وكبهم فيها، وفظاعة حالهم عند ذلك.
١٦٣ فصل في دعوتهم على أنفسهم بالهلاك والخسران إذا ألقوا في النار.
١٦٤ فصل في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.
١٦٦ فصل في ذكر الصراط وبيان خطره.
١٧١ فصل في ذكر القنطرة بين الجنة والنار.
١٧٣ الباب الرابع: في حال أهل الندامة وهم في النار، وفظاعة العذاب المسلط عليهم، وتنوعه، وذكر أعظم عذابهم.
١٧٥ فصل في أول من تسعر بهم النار.
١٧٧ فصل في دعوة أهل الندامة على أنفسهم بالهلاك والشقاء إذا مسَّتهم نفحة من عذاب الله تعالى.
١٧٨ فصل في طلب جهنم المزيد منهم.
١٧٩ فصل في تبرؤ الشيطان من أتباعه في النار.
١٨١ فصل في تخاصم أهل النار.
١٨٣ فصل في مقت أهل الندامة أنفسهم، وطلبهم الرجعة وهم في النار.
١٨٦ فصل في أن الظالمين لا تنفعهم المعذرة ولا يُعْطَون العتبى.
١٨٩ فصل في زفيرهم في النار وشهيقهم.
١٩٠ فصل في شدة بكائهم في النار.
١٩٤ فصل في غلظة عذابهم في النار وكثرة أنواعه.
١٩٩ فصل في فظاعة العذاب المسلط على وجوههم.
٢٠٣ فصل في إغاثتهم بماء كالمهل إذا استغاثوا.
وفيه ذكر طعام أهل النار وشرابهم وثيابهم، وبيان فوائد الفكر في

العذاب، وتنبيه هام على خطر المعصية.
٢١١ فصل في تعذيب أهل الندامة بالحميم؛ سحباً فيه، وشرباً له، وصبه من فوق رؤوسهم.
٢١٣ فصل في صب الرصاص في أذن من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون.
٢١٣ فصل في أن ذا الوجهين في الدنيا له لسانان من نار يوم القيامة.
٢١٤ فصل فيمن يدور في النار كالحمار جاراً أمعاءه.
٢١٤ فصل فيمن وطىء إزاره خيلاء.
٢١٥ فصل فيمن بخل بفضل ماله على قريبه أو مولاه.
٢١٦ فصل في تمنيهم الموت، وطلبهم تخفيف العذاب عنهم، وعدم إجابتهم إلى ذلك.
٢١٩ فصل في أن الظالمين لا يسليهم كونهم مشتركين في العذاب.
٢٢٠ فصل في زيادة حسرتهم برؤيتهم مقعدهم من الجنة لو أحسنوا.
٢٢٠ فصل في محاولة أهل الندامة الخروج من النار، ومنع من استحق الخلود فيها من ذلك.
٢٢٢ فصل في ظهور الندامة الكبرى، وانكشاف الحسرة العظمى، بذبح الموت بين الجنة والنار.
٢٢٤ فصل في أن النار مغلقة على أهل الندامة.
٢٢٦ فصل في حرمان أهل الندامة رؤية ربهم الكريم تبارك وتعالى.
وفيه فائدة في ذكر سبب العذاب.
٢٣١ **الباب الخامس: في بيان فظاعة النار، ورصدها أهلها، وإنذار الخلائق بها.**
٢٣٣ فصل في فظاعة النار، وشدة حرارتها.

٢٣٩ فصل في ذكر ريح النار وظلها وشرارها.
٢٤٣ فصل في سعة جهنم وبعد قعرها.
٢٤٦ فصل في شكوى النار إلى ربها أنْ أكل بعضها بعضاً.
٢٤٧ فصل في الإنذار بالنار وتخويف العباد بها.
٢٥٣ فصل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾.
٢٥٧ الخاتمة، وفيها حث العباد على دوام الفكر فيما أمامهم من الأهوال والأخطار، وبيان ما أعده الله عز وجل للمتقين من البشريات في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والترغيب في تحصيلها، والحث على المبادرة بالخيرات، والتوبة النصوح، وبيان ما هي.
٢٦٩ الفهرس.

*****